



قصة مهاجر على درب الحنين والأنين

عمر عبد العزيز





قصة مهاجر على درب الحنين والأنين

عمر عبد العزيز

تدافعت مجموعة الأطفال الأشقياء من تلة رملية مرتفعة على مرمى حجر من حارة المرايا والدهشة. حدث ذلك في يوم بعيد من أيام الصفاء، عندما كان البحر الأخضر ملتصقاً بالسماء الزرقاء الصافية، وكانت النوارس البيضاء الناصعة تسبح في الهواء، كما لو أنها أسماك بحرية تتماوج مع المياه، فيما ينهض النائمون بالترافق مع طيور الفجر الشفقية، ليباشروا يوماً آخر يعيد تأكيد كروية الأرض.

كان الوقت يتَّسع لكامل التفاصيل الممتدة من الفجر إلى المغرب، وكان سُلطان النوم سيد الموقف مع حلول الظلام، ذلك الذي يلف الحارة ويتركها مع أسرار المساء، وكان توازن الروح

والجسد مقروناً بتلك القناعة والرضى المثاليين، فحظوظ الخلق في السعادة تساوت، بحيث بدت الفوارق بين الناس أقرب إلى التنوُّع الحميد.

في تلك الحارة لم تكن هنالك أولويات خارج نطاق التداعي الحُر، مع ساعات الليل والنهار، ولم يعرف ساكنوها طعم الماء المنقول على قوارير صناعية، لأنهم كانوا يشربونه مباشرة من الآبار المنتشرة هنا وهناك.. يتساوون فيها مع عطش الدواب، وعندما جاء الإيطاليون بالقوارير الأولى الصغيرة، تحولت مفاتيح تلك القوارير إلى أفضل لعبة ذهنية للأطفال، وكانت ترتقي في قيمتها لمصاف العملة المعدنية الاعتيادية، تماماً كما كان الحال مع قواقع البحر الصغيرة، التي تُباع الخمسة منها بقيمة «كومي واحد»، وهي أصغر وحدة معدنية للعملة المطبوعة التي عُرفت آنذاك.

لم تكن حارة المساء والماء والنوارس والبشر مفارقة لموسيقى الوجود، بل كانت تجسيداً تلقائياً لها.. لا فرق هنا بين الكونترباص والتشيللو.. لا فرق بين العود والكمان.. ولا تناقض بين القرار والجواب، فالكل مخطوف بمباشرة

ذلــك اللحن الســماوي الذي يقبع فـــي طمأنينة الجــواب الناجز لكل سؤال محتمل! والكل يســتمد رومانسية الوجود من تلقائية الانسياب الشفيف مع الماء والهواء، والكل منخرط في التحاور عبــر الألوان والأنغام، حتى إن اللغة بــدت مُلحقاً متواضعاً مع حالة الاتصال الإشــاري بين الكائنات والخلق، وقد لاحظ أوائل ســاكني الحارة أنها كانت حيداً بحرياً قديماً، انحســر عنه البحر فــي لحظة جزْر عظيــم، لكنه أبقى على جوهــر الحياة المائية، فالقواقع المتيبِّســة منتشــرة في كل مــكان، والجروف الحجرية ترســم خطوطها هناك وهنــاك، وهياكل الأســماك العظمية ما زالت شــاخصة تحت الرمال، والأهم من هــذا وذاك أن الناس كانوا يتمتَّعون بالقدرة على النظر عبر طيوف الألوان الصادرة عن الأشــعة فوق البنفســجية، وهو أمر حار فيــه أوائل العلماء والباحثيــن القادميــن مــن روما الإيطاليــة، حتى إنهــم قرروا إخضاع نماذج بشــرية من الحارة لاختبارات أفضت بهم لاحقاً إلى اليأس.

في تلك الحارة لم نكن نعرف الأسماء بوصفها ترميزاً للنوع، بــل باعتبارها صداقة دائمة مع الأنــواع الحيوانية والنباتية.. لا فرق هنا بين الطيور والفراشات.. وبين الخيول والجمال، فالكل

ينتمـــي للمعاني الفريدة القادمة مــن معجزات البهاليل وأحوالهم المدهشة.

قيــل إن البهلــول هو من لا يعرف النُّطق السـليم، وقيل إنه ذلك الذي لا يتحدث البتَّة، وقيل إنه ذلك الذي يتحدث «بكلام من كلامنا وليس من كلامنا»، وبهذا المعنى يكون بهلولاً ســرائرياً لا نرتقي لمستواه، وقد أجمع عرابو «البَهللة والتَبهلل» على أن «دَمْدَمْ» يجمع ســجايا كل البهاليل، خاصة أن اســمه المنطوق يستقيم على تناوب شَرطي بين الحركة والسكون.

كان «دَمْــدَمْ» أهم بهلول فـــي الحارة، وكانت مثابة التراتب بين الحركة والسكون في اسمه الرباعي، مؤشراً لأبعاد صوتية طبعت الحــارة بإيقاعها الدائــم.. البســيط والمُتراتب، حتى إن الأطفــال كانوا يتحدثون بلغة (الجِن)، فقــد دأبوا على التحادث بلغــة تتقاطع مع لازمة لفظية واحدة هي «الجيم»، يقولون بدلاً مــن: كيف حالــك؟ (كجيف حجالجك؟)، وهكــذا كان الحال مع عوالم الجن الغامضة التي انتشــرت بيــن الناس كحقيقة يومية، تدور في جلسات النسوة المنتظمة عصر كل يوم، فقد كان أشهر عــازب في الحارة، يُتَّهم من قبل نســاء الحارة بأنه متزوج من

جِنِّية شـــابة جميلة، وقـد اختلط هذا الاتهــام الافتراضي بغيرة نســوية شــديدة، نظراً لزهده التام في نســاء الحــارة اللائي كن يعتبرن أنفسهن أجمل من نساء الجن.

ذاك هو «العم ســالم» الـذي ظلت الشــائعات تلاحقه حتى وفاتــه، وكان رده القصير الواثق علــى كل حديث عن الزواج مختصــراً بقناعة ثابتــة، مفادها أن الزواج ليــس في المحصلة ســوى مصــادرة مزدوجة لحريــة طرفين، ارتضيــا طوعاً أن يمارسا قهراً متبادلاً.

أمــا البهلول «دَمْـدَمْ» فقد ظهر في الحارة فجــأة وهو بالغ راشــد، وقد قال العرَّابون العليمون بأحوال الحارة إنه جاء من اللازمــان واللامكان، غيــر أنه وبرغم ظهــوره المتأخر، كان طفلاً حتى أعماق العظم، فلم يكن يجيد الكلام، وكان يبكي كأي طفل صغير إذا تعرض للأذى.

المقيمــون في حارة العرب قالوا إنهم وصلوا إلى هذا الحي منذ ســنوات خلــت، وعندما بــدأوا يقيمون منازلهم الخشــبية، اســتقبلهم دمــدم بكلامه غيــر المفهــوم وتأتآته المُبهمــة، وبعد أن شــرع النازحون إلــى (villaggo arabo) فــي بناء منازلهم

الخشـــبية المتواضعة لاحظوا أن دمدم خرج يحمل بيرقاً أخضر مرفوعاً على عصا طويلة، في نهايتها مبخرة يخرج منها دخان ناصـــع البيـــاض، وكان يـــدور بمبخرته ورايته حـــول المنطقة الجديدة التي بدأت للتو في التعمير، منشداً كلمات غير مفهومة، كأنـــه يبارك للقادمين ويعتبر حضورهم امتداداً له، فيما يمنحهم تعميده السحري.

كانت مبخرة البهلول المعتوه الذي سُـمي في الحارة باسـم «دمدم» تنتصـب على قمة عود طويل متعـرج وممتد لبضعة أمتـار إلى أعلـى الأفق، وكانت أول عتبـة للمبخرة المعلقة في قمـة العود بيرقاً أخضر اللـون عليه كتابات بيضاء ناصعة هي مزيج من العربية وهيروغليفية غامضة تجمع بين أشـتات من النصـوص الغريبـة المُلْتبسـة، تماماً كموشـحات دمدم التي لا تنتمي للغة مفهومة، بل كانت أشـبه بخليط من الأصوات كتلك التي يطلقها طفل ما زال يتهجّى كلماته الأولى.

يتجول دمدم بالمبخرة سنوياً، وفي يوم معلوم لا يتغير على مدى السـنين، وعن المبخرة المنصوبة في أعلى الخشبة يصدر خيط دخان أبيض رفيع كما أسـلفنا. يتجـوّل بهلول الحارة بين

المنازل، وتصل روائح مبخرته إلى أُنوف السكان، حاملة معها رائحة غامضة هي خليط من روائح العود واللبان البلدي، وكان مألوفاً حينها أن تصاب أغنام الحارة بعُطاس متواصل أثناء جولات البهلول.

يقول الناس إن هذا العطاس القادم من أبخرة دمدم، يقي الدواب من الآفات والأمراض، ويُخرج الأفاعي من جحورها، ويحاصر الصراصير في أوكارها، ويميت البعوض في برك مياهها، ويسقط القنافذ مع الأمطار المسائية، ولكنهم لم يكونوا يدركون أن تلك الأمطار خرَّبت أوكار القنافذ، وأنها خرجت إلى العراء بعد أن أصبحت بدون مأوى.

التفسير المباشر لظهور القنافذ، اختلط باعتقاد جازم بأن وصولها مِنَّة من السماء، لأنها نزلت مع الأمطار، وكانت النسوة يتسابقن في إطعامها، واعتبارها إشارة خير، خاصةً أن خروج القنافذ بأعداد كبيرة، توازى مع مشاهدات يومية للثعابين الميتة.

بعد سنين طوال عرفتُ سر العشق لتلك القنافذ التي كانت قادرة على إخراج الثعابين من أوكارها والقضاء عليها، ذلك أن الثعبان يتعاطى مع القنفذ كفريسة سهلة، وحالما يلتف عليه

لخنقه تنغرز أشواك القنافذ في جسده، حتى إنه لا يستطيع الفكاك، فينزف حتى الموت. ومن هنا جاء الاعتقاد الشعبي بأن القنافذ مِنَّة سماوية، لأنها تقوم بقتل الثعابين المنتشرة في أروقة الحارة.

الرائحة الغامضة النابعة من أبخرة دمدم لا تسري على حيوانات الحارة فقط، بل تجعل الناس يتجهون بالأغنام إلى بئر الماء ذات البرك المفتوحة، ويجعلونها تشرب من الماء بجوار الأبقار والجمال والحمير، اعتقاداً منهم بأن التطهّر سيسري على بقية الكائنات، وأن أبخرة دمدم المباركة لها فعل السحر على توازن الحارة وسكانها ومواشيها ومياهها وأجوائها.

سنون طويلةٌ حار فيها سكان الحارة من العادة السنوية لدمدم، حيث كان في يوم معلوم من شهر معلوم، يخرج ببيرقه الأخضر المرفوع على قمة الخشبة الطويلة، ويبدأ في تجواله مع البيرق والمبخرة، منشداً كلماته غير المعروفة.

ذات الحالة التي شهدها الآباء الكبار، ممن عاصروا بدايات مباخره السنوية في اللحظة التي بدأوا فيها يخطون على الأرض بداية إنشاء أول منزل عامر في الحارة.

قيل عن دمدم إنه سليل لملوك الجن، وإنه تاه في سراديب المجهول الأرضي للكائنات الأثيرية المسبوكة من نار وبخار، وإنه وجد نفسه على حين غفلة من التاريخ، مقيماً في أزمنة البشرية المفارقة لجوهره الناري البُخاري، كما لو أن مجيئه كان عقاباً له على فعل ارتكبه، أو ابتلاءً شاء سكان الكون الآخر أن يتعرض له، وقالوا إن علاقته بسيدة الحارة الأكثر أناقة وصمتاً، مرتبطٌ بترحالها الدوري إلى عوالم آبائه وأجداده. كانت تلك المرأة التي لُقِّبت بـ «سيدة الصمت الكبير»، لا تتحدث فصلاً كاملاً، يتلوه فصل آخر من العودة إلى حياتها الناسوتية، وبهارجها الدنيوية المترعة بالأناقة، والروائح العطرية، والملابس المزركشة.

قيل إن دمدم وسيدة الصمت الكبير يتبادلان أدوار الإنس والجن، فإذا كانت سيدة الصمت إنسانة تترحّل في مفازة الغيب لكائنات النار والبُخار، فهو جِنِّي يعيش بين البشر رغماً عنه، ولا يجد فرصة للعودة إلى مرابع أهله وذويه.

تلك رواية واحدة لتفسير حالة البهلول، غير أن رواية أخرى قالت إنه ولد لأب يماني قادم من ذُرى الجبال، وكان

ذلك الجَبلي من ذوي البشرة البيضاء، وأنه تزوج حسناء حبشية سمراء، فأنجبت دمدم، الذي لم يرث معلماً لونياً أو شكلياً من والده، فسرى لغط بين نسوة الحارة الثرثارات؛ قلن بأن والدته لعوب سابقة، وأنها من رواقيي الأحباش العاشقين للمتعة، وأنها جاءت به سِفاحاً من أسمر حبشي.

انتشر اللغط بين نساء الحارة كالنار في الهشيم، وما زال دمدم الصغير في قماطه، غائباً عن زمن البشرية، وكان والده اليماني يبدي ضيقاً وتبرُّماً من منظر ابنه الأسمر الداكن، وكان كثيراً ما يحملق في أنفه المختلف وشفاهه غير الدقيقة، وفي لحظة من الجنون والتعصب نما إلى علمه ما سرى في الحارة من أقوال حول الشك في انتساب ابنه إليه.

عصرَ ذلك اليوم البعيد، عاش الرجل صراعاً مؤلماً بين عصبيته وبين صفائه الديني، فقرر فض الاشتباك بين ذاته الطبيعية، وأناه الحائرة، مُستشيراً قلبه، ثم فرد حصيرة الصلاة. توضأ بكل تؤدة ونظام، ثم صلى ركعتي استخارة.. طلب من زوجته أن تشعل التنور، فكان أن اشتعل التنور لهباً سرعان ما استحال جمراً متقداً. أحضر الوالد ابنه الصغير دمدم وقال:

اللهم إن كان هذا ابني فأنجه من النار، وإن كان ابن سفاح فليحترق بالنار!!

جرت مراسم قذف الجنين في النار أمام رؤوس الأشهاد، وجزعت أمه التي كانت تولول صارخة. قال شهود العيان إن دمدم لم يحترق بالنار!! فأخرجه أبوه وقبّله بين عينيه وهو يشمخ رافعاً وليده أمام أعيان الحارة.

منذ تلك اللحظة توقفت ثرثرة النساء، ومضى دمدم إلى حال سبيله، مشمولاً بعناية خاصة من سيدة واحدة في الحارة هي سيدة الصمت الكبير.

***

تكررت قصة البهلول بأشكال مختلفة، لكن الثابت أنه – وكعادته – ظل ينساب مع خيط الدخان الأبيض الصادر من أعلى مبخرته الخضراء الموشاة بالبياض.. متجولاً بين أروقة الحارة ومنازلها، فيما تتواشج كلماته المبهمة مع الروائح الغامضة، في الوقت الذي ينصرف الأطفال فيه لحالة من الاحترام الاستثناء للبهلول الذين كانوا قبل حينٍ يزعجونه قائلين: دمدم.. لا عشاء اليوم!!

يتذكرون بكاء دمدم كطفل صغير.. يلجأ بعد قليل إلى سيدة الصمت المديد، والإبحار الفريد، صوب برازخ الكائنات الزرقاء، ذات العيون الكبيرة المطروحة في منتصف الوجه، والآذان الطويلة التي كأرقى هوائيات سمعبصرية، والأقدام التي كأقدام الحمير.

يقولون إنهم الجن، ويصفونهم بتلك الصفات الجسدية، ومن لا يريد أن يصدق ذلك يمكنه الاستماع للقصة التالية:

ذهب إلى حفل الزواج لأخذ ابنته.. وجدها مع أخرى تنضح بروائح الكافور.. رافقتهما صامتة.. دار بخلده أنها صديقة ابنته، أو تعرفت إليها في حفل الزواج.. كان الواجب يقتضي إيصالها إلى منزل أهلها في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وكان يتساءل في نفسه: لماذا استخدمت الكافور كعطر لبهجة الزواج؟.. ساروا سوياً، وعند مدخل المقبرة انحرفت الصديقة الافتراضية صوب المدخل، وانسابت بخطىً سريعة، كأنها تسبح في الهواء.. لاحظ أقدامها التي كانت أقدام حمير!!.. اعتقد أنه يهذي ولا يرى.. سأل ابنته: من تكون هذه؟ قالت إنها سميرة بنت صالح، الساكنة في الخط الثالث من الحارة.

لم يتمكن الأب من النوم في تلك الليلة، ذهب إلى بيت سميرة، وجد أباها صالح بن علي.. سأله: هل وصلت ابنته سميرة إلى البيت؟ صاح الرجل مستغرباً: اتق الله يا رجل! ابنتي توفيت منذ 3 سنوات!! فأسقط في يد الوالد، لكنه لم ينبس ببنت شفة.

في الصباح ذهب إلى عرّاف الحارة.. قال له العرّاف محذراً: لا تَروِ ما رأيت.. لا تقل لأحد ما رأيت!! لم يتمكن المسكين من إخفاء همّه على زوجته التي أقسمت بأغلظ الأيمان أن تكتم السر، ولكن ....

قال لها ما رأى وسمع.. بعد يومين، وجد ميتاً في ساحة الدار! وقبل أن نواصل حكاية البهلول دمدم لا مناص من الاعتراف بأن قصة الرجل الذي مات، رواها مؤرخ علّامة ودوّنها بذات الصيغة والمعنى، وشاءت الأقدار أن يتوفّى بعد كتابة تلك القصة.

***

مضت سنوات ودمدم على حاله لا يتغير، وبدأت الحارة تنتشي بالطفولة الجديدة المرحة.. عشرات الأطفال كانوا

يولـدون كمتواليـة طبيعية صاعـدة، ينمـون ويترعرعون في أرجاء الحـارة البحرية، المتاخمة لأكـوام الرمال الممتدة على مرابع موصولة بغابة تلقائية من أشجار ونباتات متنوعة. كانت الحـارة نموذجـاً فريداً لمجتمعـات انقرضت، فالحيـاة اليومية تبـدأ بأصـوات الطيـور وتحليقـات العصافير، ويمتـد النهار ملونـاً بأجنحة الفراشـات التي كانت تُناجز مشـقة الانتقال من ميدان أخضر لآخر، وعنـد المغيب تصطف النوارس البحرية في أسـراب منتظمة وأشـكال هندسـية بديعة، وهي تغادر إلى المجهـول، وبين يـوم وآخر كانت تمر قوافـل الأغنام والأبقار المعـدة للتصدير، وهي باتجاهها نحو المرفـأ الوحيد في مدينة مقديشيو.

لم تكن الجلبة موصولة بالسيارات أو الطائرات، بل بأشياء الطبيعة الأولـى، حيث تتقاطع أصوات الديكة مع نهيق الحمير وصهيـل الخيـول، وتنبري الحـدأة الصيادة فـي انقضاضاتها الرشـيقة مع صوت المؤذن قبيل الصلـوات الخمس، وفي يوم من أيام الأسـبوع كان جرس الكنيسـة الإيطالية يصل بوضوح إلـى قلب الحارة، وعنـد الغروب يتعمّد باعـة اللحوم الإعلان عـن عروضهم الخاصـة، بالاعتماد على أصوات السـكاكين.

كان البائع العارض يضرب السكاكين ببعضها بعضاً، فتتجوَّل الأصوات الحادة في باحات المنازل، ويتحرك الرجال صوب الوليمة الرخيصة، عائدين بكميات من اللحوم الطازجة.

كان دمدم غائباً عن تلك الأحوال، منصرفاً إلى عوالمه الخاصة، تلك التي لم تكن معلومة إلا من قبل سيدة الصمت المديد والفرح العارم، تلك السيدة التي تصمت تسعين يوماً، وتتحدث تسعين يوماً.. كانت الوحيدة العليمة بأسرار دمدم وحيواته الخاصة، يزورها في أيام صمتها وهي جالسة عند عتبة المنزل لا تُحدِّث أحداً، ولا ترد على سائل. كان صمتها يزلزل كل ثوابت الحارة ونواميسها، لأن أحداً لم يكن يعرف السبب وراء هذا الصمت الذي يمتد تسعين يوماً فقط، ولقد قالوا إن دمدم هو الوحيد الذي يعرف سر ذلك الصمت الدهري العجيب، كما يعرف لماذا تتحول سيدة الصمت المديد بعد ذلك إلى أجمل متحدثة مُفوهة، وأكثر المتأنقات حيوية في حارة الأسلاف الغامضة.

وبالترافق مع حال السيدة الصموت الذي يمتد تسعين يوماً، كان دمدم يعيش كآبة استثنائية، ويجوع يومياً، حتى إن شقاوة

أطفــال الحـارة تحولت إلى إيــذاء مُنتظم للبهلــول، وكان يكفي لاســتثارة بــكاء الطفل الكبيــر دمدم أن يقال له إنه ســينام اليوم بدون عشــاء (dam dam casha maleh)، كأنما يشــيرون إلى ولية نعمته التي تنعزل عن الحياة خلال تلك الفترة، فيبكي دمدم بدموع مدرارة، وتتفطر قلوب نســوة الحارة، ناهراتِ الأطفال، ومطمئناتٍ البهلول، وهُنَّ يعِدنهُ بيوم فرجٍ قريب، وعندما تعود ســيدة الصمت إلى عاداتها الحياتية المرحة الفرحة، يكون دمدم موفور النعمة.. يجد قوت يومه من دون مشقة.

***

فــي حــارة العرب كنــا نعانق الســحاب ونستنشــق رائحة الأمطــار الاســتوائية، المعجونــة بالرمال، كما لــو أنها عطر قادم من خارج الروائح.. وفي مســاءات الزرقة الموشاة بلحون الضياء نترك موســيقى النهار لنباشر منامات بانورامية مفعمة بالألوان والتجريدات.

نســاء الحارة كنَّ جميعاً في مستوى المرأة الاستثنائية ذات الصلة الخاصة بالطبيعة، والشــاهد أنهن تميزن بطاقة ســحرية في ممارسة الحب والأمومة معاً، مما يذكرنا بالأرض الحاضنة

المعطــاء. وقد لاحظ الرجال الصلة الخاصة بين نســاء الحارة والطبيعة، والحساســية الاستثنائية التي يتمتعن بها في التعاطي مع الجميل والرشيق، وشغفهن الخاص في النظر لتلك التفاصيل الدقيقة التي لا تلحظها عيون الرجال.

في مصفوفات الصور اليومية لنساء الحارة نُراقب المعاني الجمالية التي يتمتعن بها في بُعديْ التماهي الإيجابي مع النمنمة والزخرفة والرقش من جهة، والتذوق للألوان وتداعياتها الحرة من جهة أُخرى.

الجمال النســوي في «بلاجة» نسق وانتظام لعناصر تحمل في ذاتها تلك القيم الجميلة، فإذا ما اكتملت ضمن أنساق وتعابير منتظمــة، كانت النتيجة باهــرة رائعة، ومن هذه الزاوية بالذات يمكننا ملاحظة عشــقهن الدائم لاكتمال عناصر الجمال، وعدم المــرور على التفاصيــل الصغيرة مروراً عابــراً، بل الاعتناء بهــا حدَّ التماهي، كما لو أن أنثى الوجود حائكة دائمة للملابس، دائبــة علــى العمل كالنحــل الــذي يتحفنــا بسلســلة المؤلفات البصرية الذهنية، بل الافتراضية، والتي تقدم نفســها في ســياق تحرير بصري يُغني عن الشــرح، وللتدليل على لطائف النظر

والبصيـرة، حيث نجد في مثـل هذه المصفوفات صـوراً لفتاة تزهو بروائع الحلي التقليدية، والرسومات الزاهية الوامضة.

تلـك كانت أيامَ الصفـاء الأول، ومنها تعلّمنا سـرّ الحنين، وترافقنـا فيهـا مـع المشّـائين، والرّواقييـن، والمتصوفـة، والبكّائيـن، والأبيقورييـن، والماديين، والعبثييـن، والملاحدة، والميتافيزيقييـن، والمتطيرين، والبهاليـل، وأصحاب اللطائف والطرائف.

كانت الأشياء منائر تعبير واضح عن الجواهر والمكنونات، دونما تشظٍّ أو تذبذب، وكنّا كحالها راكزين رائين، لا نُعوّل على تصاريف الأيام، فقد كانت مثابة الواحد منَّا أن تُصرّفه الأحوال ولا يُصرّفهـا، وأن يلتقي مع المـكان والزمان دون مغالبة تثقل روحه بالجنة المفقودة، كما نحن الآن.. ذلك أن الزمان والمكان السابقين لم يكونا سوى دهر للثبات، وآخر للتحول، وما يتجاوز الثبـات والتحول. كان دهراً مسـبوكاً بقهريـة الوجود، وغياب المجهول.

فـي ذات الحـارة وعند تخوم عصـر يوم آخر مـن أزمنة الرؤيـا، بدت الأسـماء متعالية جداً، والنـوارس مُتجهة صوب

سـفرها الدائـم، والأرض قطعـاً من صخـور ناتئـة، وأخاديد غائرة.. تتوزع بصورة عشـوائية على مساحات رملية بيضاء، تُعانق البحر، كما تعانق تماوجات مياهه الأبدية.

في ذات الحارة كان الناس في بحث دؤوب عن المسـتحيل، حتـى إن الأحاجي المتوارثة فيهم تلخَّصت في كيفية الإمسـاك بالماء، وشـرب الهواء، وتحويل التراب إلى تبر، وطبخ الطعام دون نار، واصطياد العصافير بالاسـتدعاء الصوتي فحسـب، وإخراج الثعابين من أوكارها بالغناء.

ينبـري الواحد منهم ليوقف المطـر الغزير من خلال دائرة أرضية يرسـمها بسـكين المطبخ الصدئة، ثـم يغرزها في قلب الدائـرة، فيتوقَّف المطر عـن الهطول لتوّه والسـاعة! وحينما تـزداد البروق والرعود يطلـق آخر صوتاً تعرفه قطط الحارة، فتأتـي إليه وحداناً وزرافات، فيدخلها إلى منزله، حماية لها من أصـوات الرعود القاتلة، وإذا ما شـوهدت قطـة نافقة في اليوم التالـي، يقول حامي القطط: لقد كانت قطة متمردة، لم تسـتجب لنداء الحماية، فنالت جزاء عملها.

***

المهن والمهارات في الحارة ذات طابع خاص أيضاً، وذلك أبرز ما كانت تتميز به، فقد كان كل ذي مهنة وحيداً في ميدانه، حتى إن الحارة عرفت عازفاً واحداً للناي، يتجوّل في أوقات السحور برمضان ومعه جوقة تعزف إيقاعاتها على الأواني الفارغة، وكان عازف الناي الوحيد هو المؤهل لذبح أي دابة عصيَّة على الذبح. إنه الحضرمي الأفريكاني المُلقَّب «باموزا».. العاشق للسير بقدمين حافيتين، والفحل الطويل العريض.. مصدر إلهام النساء المتعطشات لزوج بكفاءاته الجسدية التي تمنحه القدرة على تمديد أكثر الكباش حجماً وشراسة، بحركتين خاطفتين من رجله ويديه.

كان باموزا معمل الاختبار الناجح لشراء الكاسات الزجاجية التي وردت لتوّها إلى الحارة، والتي يروّج لها الباعة المتجولون، قائلين إنها كاسات لا تنكسر البتة، وكان الوحيد المؤهل لاختبار كفاءة الكؤوس الزجاجية، فهو المُخوَّل بضرب الكأس على الأرض ليؤكد أنها غير قابلة للكسر.

المصور الفوتوغرافي الوحيد في الحارة يُلقب بـ(ذي العين الواحدة cumar weershe)، وقد قيل إنه كان يسعد بذلك

الاسم الذي يكشف عن تفرُّده في التصوير الفوتوغرافي على كاميرات الرؤية من النافذة الوحيدة للرؤية البصرية.. غير أن آخرين قالوا إنه كان فاقداً لعينه اليُسرى، ولهذا السبب وجد ضالته في الكاميرا الفوتوغرافية التي تلزم المصور بالنظر من ثقب إبرة المشهد بعين واحدة فقط. لم يكن هناك دليل قاطع مانع على أن مصور الحارة كان بعين واحدة، لولا تلك الحادثة التي وقعت له في ساحل «الليدو»، وهو يسبح صباح يوم الجمعة.

قال شهود عيان إنه خرج من الماء وهو يغطي عينه اليسرى براحة يده، وكان يدَّعي الإصابة في البحر، ولم يسمح لأحد بمعاينة تلك العين المُصابة.

مرت سنة كاملة قبل أن يُصرِّح منقذ عينه البلاستيكية المفقودة، بالحقيقة الغائبة عن عامة الناس. قال: إن المصور ذا العين الواحدة كان يلبس عيناً بلاستيكية في الجهة اليسرى، وأنها سقطت منه في البحر، وكان عليه أن يتابع البحث عنها أسبوعاً كاملاً، قبل أن يجدها هناك في قعر الماء، ويعيدها إلى المصور.

على خط مُتَّصل، كان عمر الصيدلاني وحيد ذاته في ميدان

العلاج الشامل لأهل الحارة.. يتجوَّل بعلبته الفضية المتألقة تحت ضوء الشمس.. المجهزة بما يلزم لإعطاء حقن البنسلين الحليبي، الذي كان الدواء الوحيد لكل الأمراض قبل وصول الأسبرين.

نسوة الحارة كُنَّ يتخذن التدابير اللازمة عندما تكون الحاجة ماسة لحقنة بنسلين، فالأطفال يرتعبون من مشهد الحقنة الكبيرة، لكن قطع الحلوى المنزلية تستدرجهم إلى حيث يصل الطبيب المداوي، فيتم الإمساك بهم، وإرغامهم على أخذ إبرة البنسلين في مشهد صاخب يبقى في ذاكرة الحضور، ويمنح عمر المداوي نفحة من انتعاشة ترافقه بعد كل عملية تحضير وإنجاز للحقن بالإبرة التي كرأس الجراد البري الطائر.

كان سيد البنسلين يُبرهن للأطفال عن سهولة أخذ الحقنة من خلال حركة خاطفة، يضع فيها الإبرة في مؤخرته هو بالذات. لكن ذلك لم يكن يقنع الأطفال، بل يزيدهم خوفاً وهلعاً.

***

كانت حارة العرب تضم مزيجاً من الصوماليين واليمانيين، وكانت تعيد إنتاج مرابع الأسلاف اليمانيين القادمين من سهول

وهضــاب وجبال اليمن، واســتقامت أحــوال المهاجرين وأبناء المهاجرين اليمانيين على قاعدة ثقافية وإنسانية بسيطة.. تلقائية وراكزة في المعنى.

كانــت «بلاجة» حارة لتلـك القاعدة الثقافية غيـر المُعلنة، والتـي تلخَّصت في التماهي الطبيعي مـع الخلائق والظواهر، وهكـذا كانــت الأعـراس تتشــابه مع المآتـم، وكانت مراســم المتزوجيــن حديثــاً لا تختلف جوهرياً عن مراســم نقل الموتى إلــى قبورهم.. فالجميع يحضر بذات الكفاءة والســخاء، ومأدب التعزية لا تقل شأناً عن مآدب الأفراح. كان اليقين يجعل سكان الحــارة يراقبون انتقال موتاهم لحياة أخرى، وكانت جدتي أكثر من يُخاطب موتانا ويســأل عنهــم وهي ما زالت معنا في الحياة الفانية.

كانــت جدتــي (bullo cali daqood) الصومالية المنحدرة مــن قبيلة (darood) التي توصــف بأنها الفرع الأكبر لمنظومة قبائــل (mageerteen) العتيــدة، تنظــر إلى الزمــان كما لو أنه ســفر من الغيب إلى الغيب، والمكان بوصفه هشــيماً ســتذروه الريــاح ذات يوم، وكانــت تحمل بيديها ســبحة طويلة، وتنتهز

كل فرصة سانحة لتقلب حبات السبحة بين يديها، فيما تستعيد أوراداً وأذكاراً لا تنتهي طولاً وتنوعاً. كنت صغير السن وأنا أتابع أورادها الساطعة بلسان عربي مبين، والنابعة أصلاً من ذاكرة الحفظ المقرون ببيان شفاهي تكاد تراه بالبصر، كما لو أنها من علماء اللسانيات الكبار.

لكنها وبالرغم من انصرافها الدائم لأداء الصلوات فرضاً وسنة ونافلة، والإقامة في أوراد وأذكار الصباح والمساء.. بالرغم من كل ذلك، كانت تدير بيتاً كبيراً لا يسكنه قاطنوه فحسب، بل كل وافد وعابر ينتمي للعشيرة، وكانت تجد كل الوقت للعناية بشؤون الأقارب الذين يتوافدون يومياً من البوادي البعيدة. تتابع انخراطهم في الأعمال، وتعتني بتفاصيل حياتهم اليومية، وتباشر تزويج الشباب والشابات منهم، من خلال مساهمة الجميع في هذا الطقس الاحتفالي الاستراتيجي البهيج، وكانت تحفظ أسماء ضيوفها وصفاتهم وخصالهم لمجرد المقابلة الأولى، بل كانت تُذكِّر كلاًّ منهم بما عليه أن يفعله في اليوم التالي.

جدتي الحاجَّة (بُلُّو علي دقوود) ورثت عن والدها أهم

صفة فيزيائيــة تمثلت في حجم الأذنين الكبيرتين نســبياً، لكنها فــي المقابل ورثت جماليات الأنف الدقيــق، والعينين اللماحتين الغائرتين في لجّة المعاني الكاشفة عن محجرين فريدي التكوين، كما ورثت الشــفاه الجميلة الموشاة بنعومة الصوماليات، والقوة البدنية المفارقة لرشــاقتها الرشيقة، والأهم من هذا وذاك الذكاء النابه، والرؤية الاستشرافية التي كاستشرافات زرقاء اليمامة.

قبيــل وصول حملة «إعــادة الأمل» الأمريكية إلى ســاحل مقديشيو بسنوات، قيل لي إنها أشارت بالبنان للبحر قائلة: «من هنا سيأتيكم عدو مبين، يفتح الباب لموت دائم وأنين».. وهذا ما حدث بالضبط، وقبيل وفاتها بسنوات كانت ترى موتانا الغائبين وتســأل عن أحوالهم، وكأنهــا معنية بأمرهم!.. كانت كمن يرى فــي الحضور الماثل للبعــض، غياباً قادماً، وتســأله قائلةً: «ما أخبــار موتانا؟!»، ولم نكن ندري أن ذلك الســؤال كان ينطوي على إشارة نبوئية، بأن الحي الماثل أمامها هو في عداد الموتى قريباً.

تلك السجايا والهبات الإلهية، لم تكن نابعة من معرفة عالمة بالقراءة والكتابة، بل من علم لدُنّي منحه الله إياها.

الدأب الذي ترافق مع حياة الحاجة ظل مستمراً وهي فوق المئة من العمر، وكانت في حياتها المديدة دائرية الهوى والهوية، وكأنها تستمد تلك الروح من مثابة العدد الدائر، الذي يعيد إنتاج نفسه دون انقطاع، فالدائرة الخماسية مثابةٌ تتشارك فيها علوم الرياضيات والموسيقى والهندسة، وهي الترميز الأقصى للكائن الصادر عن «برج الفأر» الصيني.. ذلك البرج الذي أزعم أنه صفة من صفات الدائرين الثابتين غير المُحتارين، وهكذا كانت الجدَّة الحاجة.. صادرةً عن يقين إيماني بالغيب، وحضور أفقي في الزمان المتصل ببرازخ المجهول، والثقة الدائمة بالإنجاز الممكن، والمحاصرة البراغماتية لما يحيط بها من أحوال ومهام وصروف.

قبيل وفاتها بساعة من زمن، قررت كعادتها أن تتابع سيرها اليومي، وكان على حفيدها أن يراقبها عن بُعد، دون أن تشعر، وبدا ذلك اليوم الغائم مشمولاً بمذاق خاص.. ذلك أن الغيم المنتشر ترافق مع سرب من الفراشات الصفراء التي حامت مُتهادية برفارف نسائمها اللطيفة، دائرة حول الحاجَّة، وكأنها بصدد التخفيف من إيقاعها الصاعد بلُهاث متواصل، لكنها سقطت فجأة، وكان ذلك السقوط إيذاناً بسكرة موتها العابر

الذي طالما رأته وخاطبته، وبالالتحاق بموتانا الذين كانت تسأل عنهم دوماً.

***

تم تشييع جثمان الحاجة إلى ساحة «المحفل».. هنالك حيث يتم الاحتفال السنوي بالمولد النبوي الشريف، والقريب من المدرسة الابتدائية القابعة في ركن قصي من الحارة. كانت تلك مدرسة إيطالية بامتياز.. اللغة العربية والدين الإسلامي كانتا مادتين ملزمتين للدراسة، ودأبت المدرسة على توزيع بطاقات صغيرة للتهجّي وتعلُّم الأبجدية الإيطالية. في تلك البطاقات تتقاطع الكلمات الإيطالية مع الصومالية، بحيث يتعلّم التلميذ الحروف الإيطالية بالترافق مع الكلمة الإيطالية والصومالية معاً، وعلى هذا النحو:

A arish

B banana

C centura

E elefante

M mundul

حـرص الإيطاليـون على تعميـم لغتهم، وجعلها الأسـاس في تلقـي المعارف، وكانت دور العرض تقـدم الأفلام اليومية المُدبلجة باللغة الإيطالية، فيما كنّا ندرس سـيرة الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) باللغة الإيطالية. هكذا:

Moametto capo religoso

وترجمتها أن محمداً كبير الأنبياء، أو رئيس الأنبياء.

المدرسـة المُشـيَّدة من طابق واحد عند طرف الحارة، هي «مدرسـة الفـلاح العربية»، لكنهـا لم تكن عربية إلا بالاسـم، فقـد كان كل منهجها، وبيئتهـا الأدائية، والحدائق المحيطة بها، إيطالية.. منسـوخة من نماذج المدارس الكلاسـيكية الرومانية؛ وفي المقابل كانت السـينما العالميـة المُدبْلجة بالإيطالية تتقاطع مـع أجـراس الكنائس الكاثوليكية، ومشـاهد الفنـون الرومانية البيزنطيـة الحاضرة في قلب سـورها البحري المتاخم لسـوق السـمك، والممتـد علـى طـول المرئيـات السـاحلية، وكانت المعزوفات الكلاسـيكية تنسـاب مع أنغام (vivaldi) و(fausto papetti)، فيمـا كانت أفلام الغرب الإيطاليـة للمخرج (serge

leone) تتعطلـق في دور العرض المخصصــة للأفلام الناطقة بذات اللغة.

حــارة العــرب التي ابتكرهــا الإيطاليون كمــكان خصص لتشــييد ســكنى المهاجرين اليمنيين، بَدتْ حاضناً مثالياً لجموع المهاجريــن الذيــن جــاؤوا مــع الحملــة الإيطالية فــي جنوب الصومال، وآخرون وصلوا هروباً من جور الإمامة في شــمال اليمــن، وحروب السـلطنات فــي جنوبها. ومع الأيــام تبلورت ملامح الحارة لتكتســي طابعاً حضرمياً بامتياز، كما تواشــجت علاقاتها مع الجوار الصومالي المنتمي لقبيلة (abgaal) الطيبة، لتصبح الحارة لاحقاً نموذجاً للخلاسية الحقيقية بالمعاني الثقافية والإثنية.

كان للعالــم مذاقــه الخاص، وكانت الطبيعــة البكر مفتوحة على عوالم الدهشة وتعددية البحار والرمال والبراري والتلال، وكان الأطفال يتساءلون عن منظر البحر الداكن المسطور على خط السماء الصافية كأنهما برزخان لا يلتقيان.

يســأل الطفل والده عبــد العزيز الحمودي: مــاذا وراء هذا البحر؟

يجيب الوالد: وراء البحر بَرٌّ، وهو «بَرٌّ العرب»، واذا ما قطعت البحر ستصل إلى تلك البلاد التي جئت أنا منها.

كان بَرُّ العرب إشارة ضمنية لخصوصية سيكتشفها الطفل ذات يوم آخر، ولم تكن لدى والده منحةٌ تتجاوز حدود المعارف الشفاهية الكلامية التي ظلت وسيلة القراءة الوحيدة لأعماق الحمودي.

الوالد لا يعرف القراءة والكتابة بالعربية، بل بالإيطالية، وتلك قصة تستحق أن تروى منذ بداياتها الأولى.

***

أول حكاية سمعتها من والدي كانت عن جدي الأكبر المُلقَّب بـ«الطيَّار»، وكان ذلك الجد الأكبر متصوفاً مشَّاءً، يقطع المفازات، ويصل الليل بالنهار، ويعيش مع الضواري والحشرات في البراري والقفار، ويقتات على ما تجود به الطبيعة من ثمار، ولا يتوقف في سيره مهما كثرت الأنواء والأخطار، وكان ينام على الأرض ويلتحف السماء كلما دنت الأسحار.

كان الطيَّار يعيد إنتاج جوانياته المُترعة بالشجى والشجن،

عبر السير إلى الأمام، وكأنه يتاخم سرمدية الوجود، فأينما سار وجـد الحق، وأينما تحرك لا يمكنه إلا تأكيد المؤكد، فكل ظاهر ومستتر يُعيده إلى ذات المربع الـذي انطلق منه.. لم يكن يرى البدايــة والنهاية إلا بوصفهما صفتيـن لحقيقة أزلية واحدة، ولم يكن يرى المسافة إلا بوصفها قُرباً وبُعداً في آنٍ واحد، فلا قُرب ولا بُعد، ولا مسافة ولا زمن، ذلك أن «شيخ الوقت» لا يعرف الزمـان والمكان خـارج نطاق الدهر والدهريـة.. هنالك حيث تتسـاوى المفاهيم وتصبح الثوابت مُتغيرة، والمتغيرات واحدة، والحركة أصلاً، والسكون حركة، فكيف لزمن بيولوجي فيزيائي أن يُحاصـر الطيَّار في قدراته، وأن يرهنه للماء والغذاء، وهو القادر على أن يقتات من الماء، وأن يشرب الهواء!

تلـك المثابـة التي صنعت ملحمة الصوفـي، هي ذاتها التي نشـرت دين الحقيقة فـي أربعة أرجاء القـارة الإفريقية، وكان شـرق إفريقيا سـبَّاقاً في الاسـتضاءة بروح الإسـلام الصافي، وكانـت الصومال في تضاريس تلـك المعادلة، فقد دأب طيَّارو الصومال على قراءة القرآن الكريم في ساعة من نهار، وبتناوب ماراثونـي متسـارع بين اثنيـن أو ثلاثة قراء. كان ذلك طقسـاً يتجـاوز حدود الزمن، وبرهاناً ناصعاً علـى إمكانية اختصاره

الفعلـي إلــى زمن مغاير للســاعة الفيزيائية المحكومــة بالثانية والدقيقة والساعة.

ســار الطيَّار في دربه المفتوح وصـولاً إلى ميناء «المخا» فـي غـرب اليمن، علــى البحر الأحمـر، وحالما شـاهد البحر بصفائه ورونقه الأخضر، قرر أن ينتقل من اليابســة إلى الماء، مواصلاً سـيره الدائم إلى اللامكان، وكان عليه أن يركب البحر مع المســافرين بالمركب الخشـبي.. لكنه لم يكن يملك من متاع الدنيا ســوى الختمــة المعلقة على كتفيه بواســطة جراب جلدي مُفصَّلٍ خصيصاً على مقاسات المصحف الشريف.

سأل قبطانَ المركب أن يسمح له بالسفر مع المسافرين.

قال له القبطان: لك ذلك إن دفعت ثمن الرحلة.

قال الطيَّار: لا أملك مالاً، ولكن بوسعي خدمتكم في المركب.

فكان الجواب المباشر للقبطان: لسنا بحاجة إلى خدمتك.

وقف الطيَّار أمام الســاحل يتأمل المشهد، وبعد قليل تحرك المركـب صوب دربه الطويـل، وهو يمخر عبـاب الماء نحو العمق البعيد.

فجـأةً وبدون ســابق تفكير وبحركة لا واعيــة، خلع الطيَّار

الواقف على حافة البحر عمامته، ورماها على الماء، فتوقَّفت في مكانها، كما لو أنها تنتظر من يشير عليها بالتداعي الطبيعي الحُر مع الماء، كما تقتضي نواميس الكون والطبيعة.. لكن العمامة ظلت في مكانها، ولم تتحرك أو تتماوج مع الماء، فالْتقط الطيَّارُ إشارةً ما، لم يعرف كُنهها ولا خطرت له على بال.. حاول تحريك العمامة بعصاه، فلم تنتقل قيد أنملة. عرف المقصود.. فوضع رجليه عليها قائماً كالطود الراسخ، فلم تتلوَّ خرقة المعنى من ثقله، لكنها بدأت تتحرك صوب العمق، متسارعة بإيقاع متصاعد، ومرت سريعة وعليها الطيَّار، ليشاهدها القبطان وكل من كان في المركب.. سار الطيَّار على سفينة عمامته، بعيداً في رحلته البحرية، متجاوزاً المركب.

تتبع الراؤون مسيرة الطيَّار، حتى إذا وجد أحدهم كوخه المنصوب في أرض بعيدة، اكتشف أن الطيار في خلوته تلك إنما كان يبحث عن ذاته الغائبة!

في هذه اللطيفة بالذات، العديد من المعاني التي قصدها الطيَّار وهو يبحث عن ذاته، فهو يعرف نفسَه، ولا يعرفها أيضاً، ذلك أن المخلوق في تقلباته وتحولاته يتجاوز حدود فهمه

لذاته، فكيف للآخرين أن يعرفوه؟! الإشارة التالية تتعلق بالذات المحسوبة ضمناً على هامش الذات العصبيَّة على الإدراك، وتلك سمة تميَّزت بها النفوس البشرية الممسوسة بتضاريس الغيوب.

وهذا ما فعله الإمام العلامة محمد بن محمد أبو حامد الغزالي في مقاربته حول كيمياء السعادة، ناظراً لتلك الكيمياء من خلال تحفيز العناصر الرحمانية في الذات البشرية، واستبعاد العناصر الشيطانية، عبر الدُّربة وتهذيب النفس وحسن الخلق، وقد لاحظ أيضاً أن الصفات الطيبة والصفات الخبيثة في الذات البشرية، تتنافسان وتتقاطعان داخل الوعاء الآدمي الذي يخضع في نهاية المطاف لهذه المنظومة أو تلك من الصفات.

كان ديْدن الطيَّار البحثَ الدائم عن ذاته الغائبة، بوّاحاً حين يغترب عنها، بكّاءً حين يقترب منها، حزيناً حين يقيم بها ومعها، منتشياً برقصه الدائري حين ينساها، ومتعجباً من جسمه المُضْنى بما لا يطيق، ولسان حاله يكرر ما قاله الحلاج ذات يوم بعيد:

عجبتُ لبعضي كيف يحمله كلي
ومن ثِقْلِ بعضي ليس تحملني أرضي

وبالرغم من تروْحُنه الصوفي، كان سقراطيَّ الهوى، فقد دأب على التساؤل حول ما يعرف وما لا يعرف، وكان أقل الناس هرفاً بما لا يعرف، وأكثرهم انعتاقاً من الادّعاء.

***

في منطقة جبيلة بجنوب اليمن، ولد سليل الطيَّار الوالد عبد العزيْز الحمودي. كان وحيدَ والده.. الطبيب الشعبي المُلقَّب بـ «المُجارِح»، أحد المتفردين في ممارسة الطب في تلك الأصقاع النائية، يجري العمليات الجراحية باستخدام مخدرات نباتية يصنعها بنفسه. كان ذلك أمراً خارقاً للعادة في تلك المناطق التي لم تكن تعرف هذا النوع من الطب. قيل إنه كان كثير الأسفار لبلدان الله الواسعة، وكان يقضي أشهُراً طوالاً، ليعود وفي جعبته بعض الأدوات الجراحية، وقيل إنه من سلالة خَيْطية لا تكاد تتكاثر، والشاهد أن عبد العزيز كان الابنَ الوحيد لوالده، وكانت أُخته الأكبر منه سناً تنتظره لأربعين عاماً بعد غيابه الطويل.

في ربوع القرية الصغيرة المعلقة في قمة «جبل حبشي» بمدينة «تعزّ»، نما عبد العزيز في بيئة رفيعة الجمال والجلال، وظل طوال حياته مخطوفاً بتلك البيئة ومفرداتها الأولى التي

ظلَّـت تلاحقه طوال سـنين هجرته المديـدة. هنالك حيث رافق الأغنـام الملونــة، وانخطف بالفتوّة الســاحرة للماعـز الجبلي الرشـيق، وشاهد بدهشــة الطفولة المفعمة بالخيال قوافل النوق التي تتسـلق الجبال، وامتلأت عيناه بمشـاهد الطيور الخضر، والفراشــات الشـفقية، وزهـور الصبَّار الزاهيــة، والمُدرجات الجبليــة الملونــة، والبيـوت المعلقة في رؤوس الجبــال، كأنها اللؤلؤ المنثور فوق سـجادة السماء الزرقاء الصافية، وكان مع مُجايليه مـن أطفال قريــة «الأكمة الحمراء» يتسـلُّون بالتقاط الأعناب والطماطم والخضراوات من فوق سطوح المنازل.

تلك العوالم الفريدة منحته تَروْحُناً طبيعياً خاصاً به، واكتملت بنماء جسـده القوي الذي ظـل رافضاً للأمراض والوهن، حتى بلغ التسـعين من عمره، ليباشـر موته الناعـم وهو يرى بعينيه الوعد الحق.

قال لي وهو على فراش تسعينيته وقد امتلأ بالسأم المستتر: أراه أمامي!

قلت له: من؟

قال: الموت!

فــي ذات اليوم، وأنا في طريقــي من عدن لصنعاء، مرورًا بتعزّ، وفي تمام الثالثة ظهرًا.. فاضت السماء بوابل من أمطار ودخــان، مصحوبة بعواصــف عاتية. كان الجو مُشـبعًا بالماء والهـواء، حتى إن الرؤية بدت شـبه منعدمة، وكانت سـيارتُنا تترنح ذات اليمين وذات الشـمال مثل كائنٍ رخوٍ لا يقوى على الثبات.

تاليــًا، وفي مســاء ذات اليـوم الذي انقضى، ومع ســاعات الفجـر الأولى، علمــتُ أن نوبة صعوبة في التنفـس انتابته في تمام الثالثة من ظهر ذات اليوم الذي كنا نترنَّح فيه مع الأمطار والعواصف، وحالما وصلوا به إلى المستشفى تأوّه ثلاثًا، ليلقى وجه ربه. شــاهد الحضورُ تلك التأوهات الثلاثة وهي تسبح في الهواء كدائرة ســديمية تؤكد المعنى، فهذه الدائرة الصادرة من إعماق الفؤاد نبعت من نقطة في فؤاد الفؤاد، فتحولت إلى مسار أحادي في الأثير، ثم اكتملت بمسار دائري يؤذن بوجود برزخي جديــد. هكذا انتقل عبد العزيز الحمودي إلى حياته الجديدة التي عانقهــا قبل موته، رائيًا بكل ثقة لذلك الموت القادم، مشــيرًا له بالبنان.. قائلًا كما أسلفت: إنني أراه.

مــات عبد العزيــز الحمودي وقــد اكتملت هيئــات المعنى في الدائــرة والمثلث والمربع. فالدائرة كانت الأصــلَ الحاضنَ لحياته المديدة العامرة بالمسرات والأحزان، والمثلث ارتسمت معالمُه في تمــام الســاعة الثالثة التي تكررت ثلاثاً، حين شــاهد موته في تمام الثالثة ظهراً، ونُقل إلى المستشفى في ذات التوقيت، ودفن في اليوم الثانــي في تمام الثالثــة بمقبرة كريتر بمدينة عــدن، ويبقى المربع الذي تمظهر في سيرته المكانية (تعز/ عدن/ مقديشيو/ عدن).

***

يتذكَّــر الحمودي طفولته الجَبَلية، وتلك الصور التي تتزاحم في مخيلته الأرســتقراطية، وكيف اســتوى علــى بحار الهوى والعشق طوال حياته، وكيف تحولت تقلباته في مراجل الضنى والحــروب والمشــقات، إلى مجــرد عابرين لحيــاة لا ينقصها الترف والرفاه.

***

قبيــل الغــروب الكبيــس مــن بدايــات الربــع الأول للقرن العشرين، لاحظ فتى البراري والقفار، أشباحاً قادمة من طرف الطريــق البعيد، هُنالك عنــد البُعد المنظــوري الثالث للمغيب،

وبعد قليل توارت الحالة السديمية للصورة، لتظهر بعد قليل، واضحة جليَّة.. كان ثلاثة من جُند الحاكم الإمام أحمد يتجهون صوب القرية ومعهم بغلةٌ أنهكها التعب.

في دارة المنزل قام المضيفون بإكرامهم حسب مقتضيات الحال.. بعد نهاية المائدة العامرة، كشف الجُند عن الهدف الذي جاؤوا من أجله.. كانوا مُخولين بجمع الإتاوات الزراعية من القرى المختلفة.. لكن آل الحمودي غير قادرين على الدفع، فقرر قائد الجُند نقل الغلام الصغير كرهينةٍ في الحبس.

كان سجن الرهائن عبارةً عن غرفة أقرب إلى شكل الحُفرة المُسيَّجة بحجارة جبلية قاسية.. يقبع فيها المحكوم عليهم بالبقاء هناك، وكان الغلام الفتى مع آخرين في ذات السجن البدائي. ينتظرون يومياً وبفارغ الصبر الخبزَ العسكريَّ الثقيل المسمَّى «كُدَمة»، وكانت تلك الكُدَمة كفيلة بسد رمق الجائع، لكنها كانت المعادلَ الصعب الذي يخلق مسافة بائسة يتجلى فيها التباعد الإجرائي بين حياة ناعمة، وأُخرى متوحشة.

الإحساس بالقهر والظلم حوَّل الحمودي من غلام بريء يعانق السحاب والضباب، إلى حائر تدور عيناه في مقلتَيْ

انتظارهمـا الطويـل اليائـس.. انتظـر طويـلاً سـاعة الفـرج المسـتحيلة، فحلَّـت عليـه في ليلة ليـلاء. كان الشـخير العالي للحارس مؤشراً لنوم امتدَّ به حتى هروب الفتى ورفاقه.

تعـاون المرهونـون في تلـك الغرفة الحفـرة، وتمكنوا من الخـروج واحداً تلو الآخر، وكان عليهم أن يفترقوا في المسـير حتى ينال البعض منهم حظَّ الفرار من جلّاديهم.. الظلامُ الدامس والأمطار الغزيرة شـكَّلت سـتاراً مثالياً لذلك الهروب المَلْحَمي الجماعي الفريد.

شـاهد الحمـودي بصيصَ ضـوء في منزل علـى الدرب، واتجه نحـوه مجرجراً أقدامـه المقيدة بالحديـد، وحالما وصل إليهم لم يجد سـكانُ القرية بُدّاً من إحضـار المطارق والمناجل والسـكاكين، حتى يتمكنوا من فك قيد الهارب من سـجنه، فكان ما كان، وعرف الفتى المسـكين معنـى الحرية رغماً عن دماء رجليـه النازفتين، وكانت الخرقة البيضـاء الناصعة التي لفَّتها سـيدة المنزل على رجليه برداً وسـلاماً عليه، وأدرك بحدسـه الـذي لا يخطئ أنه قد وصل إلى بر الأمان، وأن المسـافة بينه وبين الحرية غدتْ قصيرةً جداً.

منحته المرأة كيساً فيه قليلٌ من الخبز والتمور.. وقام الرجل بتجهيزه معنويّاً للمتاهة القادمة، قال له: هذه السكينة وتلك العصا هما وسيلتك للنجاة في هذه البراري المقفرة.

ثم أشار عليه بالاتّجاه جنوباً، بعد أن دفن قيوده الحديدية في حفرة عميقة.

قال له: عليك بالتوجه جنوباً دون توقف.. ستصل غداً إلى عدن.

وأضاف: لا تتوقف مهما واجهت من مخاوف ورعب، فالدرب ممتلئ بالهوامّ والذئاب والكلاب الشرسة. إن خوفك منها سوف يقضي عليك.

بدأ الحمودي مسيرة ليلة مرعبة طويلة.. كان الطريق الجبلي ينبري له بالحجارة الحادة، والمنزَلَقات الغائرة، والأخاديد غير المرئية، وأصوات الذئاب والكلاب المتوحشة، وكثير من مياه الغزارة المطرية الليلية التي لم تتوقف طوال سيره المرهق نحو الجنوب بحثاً عن الانعتاق.

كان يسير كالنائم مغناطيسياً، معتمداً على حاسته السادسة

التـــي تعمْلقت فجـــأة في ليلة الرعـــب تلك، فكان يـــرى كالبوم، ويســـمع كالغزال، ويجول بعينيه الدائرتين كاليعسوب النهري، ويستدعي قواه الكامنة كالحصان في مضمار السباق، وينتصر علـــى جـــراح رجليه بطاقـــة التجفيف الذاتـــي للدمـــاء النازفة.. وبكـــســـرة خـــبـــز وتمـــرة وجرعة ماء، يتمكَّـــن من الوصول إلى الســـهول الجنوبية الفسـيحة، فيمر على لحج «الخضيرة»، محافظاً على سيره المستقيم صوب الجنوب، فيُعانق فجراً جديداً لـــم يعهده من قبل. تبدت له منطقـــة «المملاح» في عدن بجبال ناصعة البياض كأنها سحب جبلية انتظمت على الأرض.

لـــم يعهـــد جبالاً بيضاً في حياته، وتســـارع فـــي خطاه لاهثاً وراء حـــل اللغز المُحيـــر، وحالَما وصل إلى المنطقة اكتشـــف أن تلك جبال من ملح، وشـــاهد لأول مرة في حياته، ذلك البحر الفضي الساكن الممتد حول أكوام الملح.

كانـــت المنطقة ورشـــة عمـــل اعتيادية لكل مـــن يرغب في الاشـــتغال بنقـــل الملح علـــى ظهره، ولم يكـــن أمامه من طريق ليعيد تدوير حياته ســـوى الاشـــتغال مع العاملين في هذا الحقل. حمل شوالات الملح على ظهره حتى تقرَّحت أطرافه، واكتسى

وجهُه سـديماً من نطاق ضبابي مصنوع من الرطوبة والملوحة والحرارة.

بعـد أيام لاحظ كغيـره من العمال المُياوميـن وصول بعثة غريبـة، تنصـب خيامـاً، وتسـتخدم آلات متحركة تـدبُّ على الأرض.. تتقدَّمهـا كائنـات بسـحنة بيضـاء، وملابـس فارقة، ونعومة تشف عن جنة مفقودة، ولم يكن يدري هو ولا غيره أن الإنجليـز والإيطاليين كانوا على وئـام، في ذلك العهد الذي تلا الحرب العالمية الأُولى وسبق الثانية.

كان الحمودي ينتهز أي فرصة للاقتراب من خيمة الضابط الإيطالـي، الـذي يدير آلـة غريبة تخـرج أصواتـاً كأصوات الطيـور. كان مفتوناً بتلك الآلة، مخطوفاً تجاه الخيمة.. ذلك أن تراتب الحركة والسـكون في آلة المبرقـات «الطار»، أرجعته إلى الذاكرة الصوتية للطيور التي كان يستمع لإيقاعها الصوتي التراتبـي فـي قريته بالأكمـة الحمراء.. وقف كتمثـال مُقيم في صمتـه، ليسـتمع بفرح غامر لتلـك النغمة الإيقاعيـة الصادرة عـن المبْرقـة، وكان الضابط الإيطالي الذي يباشـر اسـتخدام الآلـة منهمكاً فـي عمله، من دون أن يلحـظ الغلام الواقف عند

مدخـل الخيمة.. لكن الحالة تكررت يومياً، فقد كان عبد العزيز الحمودي يتعجَّب من الحالة.. سـعيداً بهذا الصوت الصادر عن طير صناعي يخضع لأنامل مستخدمه.. وكانت دهشته مقرونة بيقين داخلي لا يرقى إليه شـك؛ لقـد رأى ذاته في التعاطي مع هذا الطير الآلي الجامد.

يومها أدرك الضابط الايطالي أنه أمام شـاب فتيٍّ، نبيه حدَّ الاحتياط، وعاشـق للصوت والضوء حدَّ التماهي، فأشـار إليه بالقـدوم، ولـم تكن هناك أدنـى إمكانية للتفاهم اللغـوي بينهما، فحـلَّ الاتصال غير اللفظي المشـكلة. تالياً طلـب منه الضابط أن يضـع إصبعه على آلة «الطار»، فبدت دهشـة الغلام أقرب إلى الهـوس المخطوف باللحظة والنغمـة. حينها أومأ الضابط للمترجـم، وطلـب منه استشـارة الغلام في أن يُسـجل كجندي ضمـن العسـكرية الإيطالية، فلـم يكتفِ المترجـم بالمعنى، بل زاد عليه تشـويقاً بالمنطقة التي سينتقل إليها الجندي في الجيش الإيطالي.. تلك المدينة السـاحلية الصادحة بالمسـرات.. كثيرة الأشـجار.. وارفـة الظـلال.. تتدلى الأعناب من فـوق بيوتها، وتتجول الطيور الملونة في جنباتها، وتسـبح الأسـماك مع مياه سحابها، وتنبت الأرض ثماراً تلقائية بعد كل هبة مطر!

تلك الأوصاف لم تكن مدعاة لسعادة الفتى، بل الآلة التي رآها بعينيْ طفل جبلي يعرف عشق الطيور، ولغتها الخوارزمية المتأبِّية على فهم أقحاح المدن.

في ذات اليوم تحوَّل عبد العزيز الحمودي إلى رقم في العسكرية الإيطالية، التوَّاقة للوصول إلى الصومال الجنوبي.. وقد كانت التسوية الضمنية بين الإيطاليين والإنجليز والفرنسيين، تتضمن توزيع أرض الصومال إلى ثلاث مستعمرات: إنجليزية في شمال الصومال (جوبا العليا)، وإيطالية في جنوبه (جوبا السفلى)، وفرنسية في شمال الشمال (جيبوتي)، وعلى أن تبقى (أوجادينيا) في الغرب، و(ان إف دي) في جنوب الجنوب، مع إثيوبيا وكينيا. كان ذلك التوافق غير المعلن قد تمَّ بعد الحرب العالمية الأولى، واختلَّ أثناء التحالف الإيطالي الألماني في الحرب العالمية الثانية.

***

انطلقت باخرة الإيطاليين صوب هدفها المرصود في مدينة مقديشيو، وكان الحمودي ورفاقه اليمانيون الذي تمَّ تجنيدهم من عدن، يتلهفون تحرّقاً لمعانقة مدينة المرايا والضباب، وعناقيد

العنب المتدلية من سطوح منازلها، والمروج الخضر المنتشرة كالمـاء والهـواء، وكانت تقلبات الأمـواج البحريـة تثير فيهم الشـجون والأحلام الزاهية، فالبحر الممتد إلى المحيط الواسـع كان عامـراً بالشـواهق العاتيـة، وانحـدارات الميـاه المرتدة، ومسـطحات الألوان الخضراء الناصعـة، وكان البحار اليماني (كشَّـار) يحدد لهـم مكان سـير الباخرة من خلال طعـم المياه البحرية التي يتذوقها، قائلاً لهم: نحن الآن أمام جزيرة تبعد عنا عشـرين ميلاً، وبعدها سنعانق بحراً جديداً بطعم مختلف ولون داكـن الزرقة، وكثير من رغوة البيـاض الدائري الذي يترافق مع تقلبات الأمواج الجديدة القادمة من شمال الشمال، وسنشاهد في مســارنا أسـماكاً بنفسـجية، تتقافز علوّاً وارتفاعـاً، احتفاءً بوصولنا، وستدور تلك الأسماك في محيط باخرتنا، لأنها قادرة على السباحة في الهواء.

صدقَتْ أقوال البحَّار الكشَّـار، فالأسماك الملونة تتقافز في اسـتعراض مثير لم يألفه سـكان الجبال اليمانيون، وكان بعضٌ من تلك الأسـماك يحوم سـابحاً فـي الهواء المحيـط بالباخرة، وكأنها تلتمس اتصالاً إشارياً مع الناسوتيين الذاهبين إلى عوالم المجهول الغائب..

قال كشَّــار مبشــراً الحضور بوصول قريب: نحن على بُعد يوم من مقديشــيو. وأضــاف قائلاً: اعلموا يا رفــاق الدرب أن ملوحة البحر ليســت واحدة، وأن منها ما هو ملحٌ أجاج، ومنها مــا هو ملحٌ معجون بالماء الــزلال، ومنها ما هو عذب صافٍ، واعلمــوا أن كائنات البحــر دالّتُنا في البحر، فإذا احتفلت بنا كنا على مقربة من اليابسة، وإذا استشاطت غضباً فنحن على مرمى حجــر من الغرق، وانظروا يا رفاق الدرب إلى ســحناتكم.. ألا تــرون ألوانكم تتبــدَّل كما تتبــدل مياه البحار، وضيــاء أعينكم تتناوب اللمعة مع ألوانه؟!

وقال: اعلموا أن للبحر ســطحاً صافياً كالوضوح، وأمواجاً عاتيــة كالصــروح، وبينهما وحوش تحمل المــوت ولا تبوح.. وإياكم ثم إياكم أن تقيســوا البحر الذي لا قياس له، وأن تغتروا باليابســة ومــا زلتم فــي البحر، وكونــوا يا عباد اللــه صابرين مصابرين، حتى تلامس أقدامكم الأرض.

لم يكن الكشّــار مجرد بحــار، بل كان عارفــاً بعلوم المواد والأفــلاك والهيئات والرياضيات، مُدركاً أن الهيئة ســؤال من أســئلة الفلســفة والوجود الأكثر التباســاً بالــذات والموضوع،

ذلــك أن الهيئة صــورة موضوعية تنتصب في مشــهد الطبيعة خارج إدراكنا، لكنها في ذات الوقت تمثل حالة ارتباط شــرطي بحواســنا المختلفة، فبــدون حواس البصر واللمس لا نســتطيع رؤيتهــا وإدراك كُنههــا، ومن هنا تتجــاذب عناصر الموضوع الخارجة عنا، بعناصر الموضوع النابعة منا!!

الهيئــة قائمة خارج إدراكنا عندما نكون غائبين عنها، لكنها لا تظهــر لنا عندما نكــون بجوارها إلا بحواســنا المُدركة لها. ومن هنــا تباينت الرؤى فــي علوم الهيئة، فمنهــم من اعتبرها وجــوداً خارج الوجود، ومنهم من رهــن المرئيات والمدركات بذاتــه الفردية الموازية لأي ذات إنســانية، وبهــذا المعنى أنكر الموضوعــي لصالــح الذاتي، وقــرن الوجود بــالإدراك، فيما تعــارض معه المؤصّلون في التعليم الماورائي الفلســفي، ممن نظروا للعدم بوصفه كُنه الوجود، والعدم هنا مجيَّر على الغائب عندي وعندك، لا الغائب بالمعنى الإطلاقي للكلمة.

بمثل هذه التمائم والطلّسمات، كان الكشار يقود باخرته التي ســارت في دربها حتى بدت لهم رمال الشــاطئ كسديم من مياه سراب، وباقترابها الكسول إلى اليابسة كانت القوارب الصغيرة

بانتظارهـم، وكان الحمـودي يرمق المشـهد الطـارئ بعينين واسعتين.

تصادمت في دواخله الصورة الذهنية التي سمعها عن مدينة البهـاء والزرقة وأقواس قـزح، تلك التي قـال فيها الواصفون إنها مدينة عامرة بالمروج الملونة، والأشجار الباسقة، والفواكه الاسـتوائية المتناثـرة على الأرض.. لكنه الآن يشـاهد الحقيقة الشاخصة أمامه في البر الأولاني.. التالي للبحر.. أشجار بحرية متوحشة تمددت على طول الساحل.. ربيعاً مُنمنماً بالجمال ظل قابعاً في ذهنه الباحث عن المستحيل.. غائباً عن المشهد.

حـال وصولـه إلـى حيـث التلاشـي النهائي للأمـواج في الأرض الفضية المشـعة بالحـرارة، كان عليه أن يتحمَّل نيران رمـال حاميـة، لم يعهدها من ذي قبـل، ورطوبة مناخ خانق لم يعرف كنهها ذات يوم، فـإذا بالصورة الذهنية الموعودة تنقلب رأسـاً على عقب.. وليت الأمر ظل على حاله! فقد كان مرض الجدري المنتشـر في تلـك الأيام واقفاً له بالمرصـاد.. لقد وقع فريسـة للمرض المرعب، فانهال الفيروس على جسـده عضّاً وحَفْـراً وتمزيقاً، وكان التمرُّغ في رمال السـاحل الاسـتوائي

الحارقة وسيلته الوحيدة للتداوي من الجراح المنتشرة في كامل جسـمه، وكان عليه أن يتقلَّب يومياً في جمـرات الظهيرة لتلك الرمـال الحارقة، لتسـفر تجربة الأنين والألم عن جسـد أضناه التعب، حتى استحال إلى خارطة من حفر وأخاديد انتشرت في وجهه، لتبقـى بصمة ذكرى مؤرقة لا فكاك له منها.. لكنه حمد الله على أن عينيه الصافيتين بقيتا سليمتين في محجريهما، وأن تلك الحفر والأخاديد لم تتمكن من إنهاء وسـامته التي سـتكون فـرس رهانه في قادم الأيـام عندما يلبس الطربـوش الطويل، ويغتسل بماء الكولونيا، وتكتمل ملامح أناقته الإيطالية بمفردات تراثية شعبية يمانية.

صورتـه الأكثر ترميزاً لحالته بعد التعافـي، تُرينا أنه كان يلبـس بدلة أوروبيـة متكاملة، وحذاءً إيطاليـاً من كبريات دور التصاميـم والأناقة، وخاتماً بفصٍّ من عقيق يمانـي.. ويعتلي كل هذا البهاء بعمامة ملونة تنتصب في قمة رأسه كما لو أنها التاج الذي يومئ لمصدرها.

في مقديشـيو تعلـم الإيطالية قراءةً وكتابـةً، بل أجادها كما ينبغـي أن يتَّصف بـه الجندي الإيطالي في جيش موسـوليني،

وفي السـنوات الطويلة اللاحقة كُنتُ أتلقى رسائله بلغة «دانتي اليغييري»، تلك التي رسخ أصولها الصوتية والكتابية الشاعر الإيطالي المُؤسِّس، معتمداً منهج الخليـل بن أحمد الفراهيدي، في تأكيد على التناوب السـرمدي بين الحركة والسكون، وهكذا تحولـت اللهجـات التاريخية لشـبه الجزيرة الإيطاليـة إلى لغة غنائية تتفرد بلوغاريتماتها الصوتية البصرية المتوازية. وكانت كلمات الحمودي النابعة من ذات المصدر.. البسيطة والموحية.. تذكرنـي باسـترخائه الدائم في الحديقة المنزليـة الصغيرة التي كان يرعاها بنفسـه، ويجلس بين أشـجارها وزهورها وهو في كامل أناقته الروحية، مُنتشـياً بتمازج الواقع مع خياله الجامح، وكانت أجمل لحظات سـعادته عندما يقوم بشرح أسماء وأنواع النباتـات المنتشـرة بكثافة في تلك المسـاحة الصغيـرة التي لا تتعدَّى بضعة أمتار مربعة.

كان يزهو باسـتعراض طقسـه الفريد، وهـو يتجوَّل مقدماً عرضه المغناطيسـي في باحة المنزل.. تتابعه فراشات الحديقة المسـحورة به. وحالما يشـير إليها بيديه تعود فـي انتظام نحو الحديقة.. وكان الحيوان الوحيد المتمرد على سـطوته الروحية تلـك، هو ديك المنزل العنيد، الذي لم يتمكن الحمودي ذات يوم

من الإمســاك به رغم المطاردات اليومية، والمحاولات الكثيرة لقدجينــه.. بل إن الديــك كان ينتهز الفرصة التــي يخلو له فيها الطريق إلى الحديقة، ليعيث فيها تدميراً ونتْفاً وتقشــيراً، فإذا ما همَّ الحمودي بذبحــه والتخلص منه انبرى له جميع أفراد البيت العاشقين لشقاوة الديك.

الأغنام والدجاج والطيور كانت طوع بنانه ورهن إشارته، وكانت تعتلف وتقتات من يديه المبســوطتين، وتسعد بابتسامته وهو يباشــر ذلك العنــاق المُتروْحن. وكانت الأغنــام المولودة حديثــاً تنــال رعاية خاصة منه، فقد دأب علــى تلوينها بالحنَّاء، ومســح أجسادها بالمياه الباردة، والتمتمة بغناء فوق لغوي وهو يخاطبها، وما كان يكمل عادته اليومية بارتياد الحديقة، وتصفح المجلات الإيطالية إلا بعد الطمأنينة على حيوانات المنزل، تماماً كالعناية الخاصة التي كان يوليها لنخلتَيْ المنزل المثمرتين. لكن مع هذا العشــق الأزلي للنخلتين تبخرتا رغماً عنه.. مرة عندما قــررت زوجته إزالة الأولى للتوسُّــع في بنــاء البيت، فانخرط الحمودي في معركة خاســرة، انتهت بإشــرافه الشخصي على إزالــة النخلة، والثانية عندما ســقطت النخلــة الثانية من طولها ليباشر بنفسه تصفية معالمها على الأرض.

الإيطالية التي عرفها قراءةً وكتابةً، لم تحلَّ محل العربية التي لم يكن يعرفها قراءةً وكتابة، بل إنه باشر بشراء أول راديوهات الصمامات الكبيرة، التي كرَّسـها لاحقاً للتلقِّي الشفاهي العربي. كان ذلك الجهاز رفيقَ أيام الاسـتماع المجيد للإذاعات العربية، وخاصة إذاعتي لندن وصوت العرب، اللتين كانتا بمثابة لازمة يومية لعموم المستمعين العرب، وكان مزاج الاستماع الإذاعي عند الحمودي يتكامل مع قراءاتي المتكررة له.

كنتُ أقرأ على مسامعه كتب التدوين البطولي التاريخي التي يعشقها، ومنها «سيرة عنترة»، ومغامرات «غريب وعجيب» و«سهيم الليل»، وقصص «ألف ليلة وليلة»، وبطولات «سيف بـن ذي يزن».. بالإضافة إلى كتـاب «بدائع الزهور وغرائب الدهور»، و«سـيرة أبي زيد الهلالـي»، وكان كثيراً ما يطلب مني قراءة مرثاة سقوط الأندلس الشعرية:

لكل شيء إذا ما تمَّ نُقصان

فلا يُغرَّ بطيب العيش إنسان

وكان أثناء الاسـتماع لتلك المرثية يتأوَّه مُتحسـراً مقهوراً، وكأنه يعيش في ذات اللحظة التاريخية.

حينها كنت في العاشـرة من عمري، وكنت أسـتمتع بقراءة العربيـة بصوت جهـوري، وكانـت الأبعاد الصوتيـة الثلاثية للغـات العربيـة والإيطالية والصوماليـة، محمولة على أجنحة الجوهر الصوتـي الواحد، وإن تعددت الألفاظ وهيئات الكتابة، وكان الحمـودي ينحـاز سـماعاً للعربيـة، ويغرق فـي التلقي الشـفاهي النابع من لغـة الآباء والأجداد، لكنه فيما كان يسـمع المقروء، سرعان ما يغطّ في نوم عميق، ليستعيض عن السماع المباشـر بحالـة «تلباثية» أورثها لنا جميعاً، وأمعنتُ شـخصياً في اسـتخدامها أثناء دراسـتي للغة الرومانية. كنت أكتشـف – وأنـا مسـتغرق في القراءة له – أنه راح فـي نومة غياب ثقيل، فأصابُ بخيبة أمل، بعد أن أكون قد قرأت عديد الصفحات التي لم يستمع إليها، لكونه قد سافر مع ذلك السلطان. في اليوم التالي كان لا بد أن أستعيد معه ذاكرة الاستماع السابق، وأين توقفت، تماماً كما يسـتذكر المُصاب بالضغط مدونة ضغطه السابق قبل كل قياس جديد، وكما يعيد الراكب تجهيز دابته قبيل ركوبها.

بعد مـرور عقود من الزمـن تجدَّدت لـدى الحمودي عادة الاستماع لصوتي، فقد كان يحتفظ ببضع كاسيتات سُجلت عليها محاضراتي المتناثرة، وكانت وسيلته المناسبة للاستماع، لأنها

تمنحه استغراقاً مؤكداً في النوم. كان ذلك مثل دواء «الفاليوم» الذي يمنحه الفرصة للرحيل في مناماته العامرة بالمدهشات، والمرئيات، والألوان، والانبثاقات غير المألوفة.

أزعم أن الحمودي كان من شيوخ المنامات، فقد ظل يبحث عن نفسه عقوداً من الغياب، حتى إن جده الطيَّار كان يتمرأى له في قيلولة الظهيرة، ويخاطبه من ذلك البُعد الذي ليس كالمسافة، ويقترب منه اقتراباً لا علاقة له بالمسافة، فلا قُرب ولا بُعد، ولا مسافة ولا زمن. يوم أن وصلت قافلة الأسلاف مُحمَّلة بالذهب، والفضة، والقوارير الخضراء، والمرايا الزرقاء، والحجارة الكريمة، والعقيق اليماني، الذي يجتمع في تنوعه، ويتنوع في واحديته، ليؤكد معنى «الجمع في عين الفرق» كان الحمودي يتغنَّي بقول البكَّاء العاشق:

على العقيق اجتمعنا

نحن وسود العيون

ما ظن مجنون ليلى

قد جُن بعض جنوني

فيا عيوني عَيَوني

ويا جفوني جَفَوني

ويا قليبي تَصبَّر

على الذي فارقوني

فارقتهم يوم الاثنيـ

ـن صبح الثلوث اَوحشوني

هم سادة خلفوني

أبكي دماً من عيوني

بكيت حتى رثا لي

الطير فوق الغصونِ

بالله إن متُّ شوقاً

بأدمعي غسلوني

سر يا رسولي إليهم

شوقاً وقبِّل يديهم

واقرأ سلامي عليهم

لعلهم يرحموني

جاني رسولي يضحك

وقال أبشر بصُلحك

بحق عيشك وملحك

هم بالوصال أوْعدوني

ذلك كان لسان حاله وهو يُموْسق الكلمات بصوت متهدِّج، معجون بالحزن والحنين والدموع، وكأنه يخاطب أهل قريته القريبين منه حدَّ التماهي، والبعيدين عنه مسافة أربعين عاماً، تتأكد حقيقتها البيولوجية حال زيارته للقرية بعد تلك العقود الأربعة، وليعانق مجدداً قمة «جبل حبشي» بجوار «يَفْرس» في «تعز»، وليرى نفسه في مسقط رأسه بقرية «الأكمة الحمراء» التي ظلت على حالها رغم العقود الأربعة التي مضت.. ثم يراقب صورة ذلك الطفل الذي كانه، وليمشي معه الهوينا، في تأكيد دهري.. تجمعهما الواحدية، وتفرقهما مسافة الأنين والحنين.

وعلــى مرمى البصــر من حضوره الغريــب للقرية، تندفع أختــه التي تيقَّنت أنه هو، فتنهال عليه بكامل جســدها المشــبع بالحنيــن والذكريــات. في المســاء تصاب أخته بحمّى شــديدة، وتموت بعد أن سعدت برؤيته المنتظرة منذ أربعين عاماً، ليشهد بدوره جنازتها المترافقة مع بكاء الطيور، وغياب الفراشــات، وذبول الأزهار.

***

الترحــال في المنامات حالــةٌ جِينيةٌ جبريةٌ لــم يكن لنا مفرّ منهــا، فقــد رأيت في ذات منــام واثق أنني مع شــقيقي الراحل «عبــاس» الذي أمســكني من يدي لنســير معاً نحــو قمة جبلية ســديمية الجمال.. كثيرة الأشــجار والطيور الصادحة، فدخلت معــه إلــى مكتبة من رفوف فضيَّــة، وهو يشــير بيديه لأُمهات الكتــب المســطورة بماء الذهــب، وكأنه يُحمّلني ذات الرســالة التي التقيتها منه وأنا في المرحلة الابتدائية ودون سابق إشعار. منحني شــقيقي الراحل في «صنعاء الحصار»، منحتين فائقتيْ المعنــى: الأولى عندما جــاء إلى المدرســة الابتدائية الإيطالية لينفحني بشنطة مَدرسية زرقاء اللون حدّ الصفاء المُشع، وكانت

تلك الشـنطة بمثابة مشروع رسالة صامتة توازي قوة المعرفة ودهاليزهـا الصعبـة، والثانية عندما جـاء لينقذني وأخي أحمد من غرق مؤكد تحت جسر الميناء في شاطئ الليدو بمقديشيو..

لكنـه لم يكتـفِ بتلك المآثر الرسـالية، بل زارنـي في منام مُبكـر بعيـد وفاتـه التراجيدية فـي صنعاء، ليرافقنـي إلى قمة الجبل المحاط بأسـوار خضراء، وليضعني في المكتبة العامرة بالكتب المسطورة بماء الذهب، وكأنه يقول لي: أنت هنا، وتلك مسيرتك.

الحمودي الوارث لثقافة الدهشـة، والتطلع المستديم للجديد، كان عاشـقاً للموسـيقى والتصوير الفوتوغرافي، حتى إنه ملأ جدران المنزل بآلات العود والكمان الوترية، من دون أن يحاول حتـى مداعبـة أوتارها، غير أنـه امتلك أنواعاً مـن الكاميرات الفوتوغرافيـة، وبها باشـر هوايته المحببة ليتـرك لنا مصفوفة فريدة من صور البدايات والطفولة.

***

العسـكريةُ الإيطاليةُ التي تموْضعت في مقديشـيو، سرعان ما وجدت نفسـها منخرطة في الحرب العالميـة الثانية، بعد أن

اصطفَّ موســوليني مع حليفه هتلر، وكان اليمانيون، وكعادتهم علــى مدار التاريخ المعروف، يمثلون مَيْســرة الجيش كما أومأ لذلــك «ابن كثير» فــي تاريخــه المقرون بتوصيفــات معارك السيوف والرماح والنبال.. فالعســكرية التقليدية التاريخية كان جُند الميسرة فيها يمثلون ثمانين في المئة من قوام الجيوش، وقد وجد اليمانيون أنفســهم منخرطين في قتال لا يعرفون معناه ولا هدفه، علــى جبهتي ليبيا وإثيوبيــا، وكان من نصيب الحمودي ورفيقــه اليماني فاضل أن يكونا في الجبهة الإثيوبية الصومالية التــي تواجهت فيها العســكريتان البريطانيــة والإيطالية، وكان «فاضل الحكيمي» مخنوقاً بإحســاس غامض عندما قال لزميله الحمــودي: إذا حدث لي شــيء في هذه الحــرب فعليك بالعناية بزوجتي وأطفالي.

كان الحكيمــي متزوجاً مــن جدتي الصوماليــة، وكانت قد أنجبــت له من الأولاد اثنين، ومن البنــات اثنتين، وكانت مريم الحكيمي هي الكبرى في أولاده وبناته. غاب الحكيمي في إثيوبيا كما توقَّع هو بذاته.. قيل إنه وقع في أسر الإثيوبيين، وافترضوا أنــه قُتل تمزيقاً بالســيوف، ولعل هذه الفرضية اقترنت بســيفي الحمــودي اللذين جــاء بهما من الحرب الإثيوبيــة.. كان الأول

سيفاً يمانياً طويلاً معقوفاً وبنصل حاد، والثاني سيفاً حبشياً قصيراً مستقيماً وبنصل حادّ أيضاً، وكانت تلك السيوف موضع عناية منتظمة للحمودي الذي كان يتباهى بهما، ويخضعهما للتهذيب والتبخير والدعك والتلميع، وكأنه على أبواب معركة تاريخية تعيد للسيوف أمجادها.

في ذاكرة المعارك الإثيوبية، ترسَّخ في الذهن أن الأحباش يقاتلون بالسيوف والرماح والنبال، ومن هنا جاءت فرضية مقتل الحكيمي بسيوفهم، وتأكد غيابه الغائب بمرور عشرات السنين من انتظار لم يسفر عن خروجه البتة.

عاد الحمودي إلى مدينة «بيدوة» المتاخمة للحدود الإثيوبية الصومالية بعد أن فقد زميله وناقته.. عاد متخماً بجراح الشظايا التي ظلت تقضّ مضجعه حتى مماته عن تسعين عاماً أو يزيد. حال وصوله للمدينة باشر بتنفيذ وصية الحكيمي، وكان أفضل ترجمة لهذا أن يتزوج من ابنته الكبرى مريم الحكيمي، وأن يرعى بقية أطفاله.

كان الحمودي زوجاً نبيلاً في تفاصيل أيامه وتصرفاته، وكانت زوجته تتجاوز مثابة الرجل الذي اختارها واختارته

من بين الخلـق أجمعين، لكن زمناً رمادياً حاصرهم بعد مرور سنوات طويلة من زواجٍ مثاليٍّ وأسرة يشار لها بالبنان، وكانت الشـائعات والأقاويل بمثابة الوقود لنيران الغيرة والشـك. ذلك الزمـن الذي بدا رماديـاً كان كفيلاً بقلب الثوابـت والمعادلات المألوفة في تلك الأسـرة، التي بدت نبعـاً صافياً يفيض بروافد مجتمعية متنوعة الأبعاد، ومتعددة الاحتمالات.

لكن أمراً جللاً حدث عصر يوم من أيام المكان الذي لم يعد يجمعهـم، والزمان الذي تخطَّـى المكان بقوة دفع عارمة تغالب الذاكرة، فبالرغم من اشتعالات وجدانيْهما المترعين بأيام الحب المتجـدد، فـإن الزمان والمـكان ضاقا بهما، لكونهمـا مُعادلين موضوعيين لما يتجاوز الأنا النرجسـية وذكرياتهـا العطرة. تداعت الأيام وفق نواميسـها الأكروباتية، فانبرت حقائق الجبر الوجـودي لتحيـل عاطفتيهمـا المتَّقدتين إلى رماد من شـكوك وريبة متتالية..

لقد ضاقت بهما الفضاءات على اتسـاعها، والذكريات على جمالهـا الأخاذ، والمعاني برغم نبلها الشـريف، فـإذا بكل المدّ العظيم لبحار الزهو والشفق الجميل يستحيل إلى مجرد صخب

ونتـوءات مداهمة. لقد انتابها الشـك الكبير في زوجها، فجاءت المعادلـة الرياضية بقدر فداحة النتيجة، وتتابعت أوهام الظنون حتـى تحولت إلى حقيقـة تثبت معنى المعقول فـي اللامعقول، والمرئي في اللامرئي، والممكن في المستحيل، فتفارقا وتنازعا خارج المكان والزمان، بل خارج المنطق والحقيقة.

يومها أثبت سلطان الحنين سطوته، وسجل مقولته الأزلية، ليرمـي بهما في غياهب بحر يتطاول في جَزْره بعد أن اسـتنفد مَدَّه، وما كان لهما من خيار للسيطرة على متوالية الجزر والمد الأبديين سوى شرارة العاطفة الأولى، التي كانت كفيلة بتحويل رماد الأيام إلى ألوان زاهية تشع بأقواس قزح الشفقية.

استعادا الذاكرة في لحظات صفاء وتأمل، وتداعيا عند تخوم المناطق الخضراء في علاقتهما الزوجية المديدة، وحافظا على مسـافة عاقلة في العلاقـة الطبيعية مع الأبنـاء، وتركا لعبقرية الزمان فرصةً لرأب الصـدع، فجادت الأيام بما لم يتوقعاه. لقد عادت العلاقة إلى سـابق سـويتها رغماً عن الوشـاة، وسارت سفينة الزمان قدماً نحو مآلاتها الطبيعية.

مـا كان للحمودي أن يعود لواحة بيته المُشـيَّد بالمعاني إلا

بعد أن خاض غمار تجربة عاطفية جيَّاشة، ولعل عشقه الأزلي للأناقة والعطور ساهم في سلسلة التوريطات العاطفية الخطرة التي كان يتجاوزها واحدة تلو الأُخرى.

هذه المرة بادرت غانيةٌ جميلةٌ بالتعرف إليه بذريعة أنها معجبة بطربوشه الطويل، وأناقته التي لا تخدع وسامته الجبلية، ولكونها من نفس برجه المائي. حدث ذلك في سديم ليلة شتوية عابرة، وعلى مقربة من أنوار الضياء الخافتة من محل تجاري يزهو بعناصر الأناقة، وفق تلك الأيام. استجاب لدعوتها مسحوراً، وتداعت بهما المدينة ليعرفا بعضاً عن كثب، ويكتشف الحمودي المخطوف من مرابع طمأنينته الحياتية أنه قادر على القيام بانعطافة حادة في حياته، وأنه يتوفر على كل أسباب المناورة ليخوض مغامرة مبهجة كتلك التي تعد بها سيدة الجمال والمال، الساقطة عليه من علياء الصُّدفة، كما لو أنها تفاحة العالِم نيوتن، التي كشفت لنا معنى الجاذبية في الكرة الأرضية.

بعد أول دورة مخملية مقرونة بالوعود السخية، تفكَّر الحمودي في أمر الجاذبية الأرضية، ليكتشف أن مقولة نيوتن

ليست خارج نطاق المقاربات الفلسفية، التي أدركت بقوة الخيال أنه لا صُدْفة بدون ضرورة، وأن تلك التفاحة ما كان لها أن تسقط على الأرض لولا أن الغصن ناءَ بوزنها، وأن تلك الالتقاطة العلمية ما كانت لتتم لو لم يكن نيوتن حاضراً.. وهنا أدرك أن الصدفة التي كانت سبباً في تعرّفه إلى هذه الفتاة المائية، ليست منقطعة الصلة بالماضي والمستقبل، فالماضي يجمع البشر على الذكريات التي يتداولونها بينهم، والمستقبل يستبقي الذاكرة الخابية برغم تطاول السنين.

خرجا معاً مراراً وتكراراً، لكنه كان يزداد يقيناً في كل وامضة من زمن الصناعة الجمالية الأنثوية، أنه ينحسر في زاوية ضيقة تزداد انفراجاً كلما اقترب منها، وتضيق تحدُّباً كلما ابتعد عنها.

أدركت بغريزتها الموروثة من أسلاف النساء، أن هذا المخطوف ليس ضالتها. تركته ببساطة قبل أن يتركها، لكن اللحظة الأولى للتعارف ظلت قابعة في مكان ما من ذاكرتيهما المتعبتين، وانتهت القصة.

***

بعد سنين من نهاية تلك الحرب تكاملت أخاديد وجهه بإصابات في ساقيه ورجليه.. لكن تلك الإصابات ما كان لها أن تكمل صورة الرجل المعجون بالجروح والآلام، من دون البدايات التي صنعتها قيود «العُكْفي»، عندما كان غلاماً رهيناً في سجون الإمامة البدائية.. تلك القيود التي ظلت مرسومة في رجليه كأنه ولد بها ومعها.

في الحرب الإيطالية البريطانية على الأراضي الإثيوبية الصومالية، كان الحمودي مُناجزاً في المعمعة.. حاضراً في تفاصيل التراجيديا.. منصرفاً لمصيره الغامض. ومُدججاً بكل أنواع الأسلحة والملابس والجروح معاً. قال له الضابط الإيطالي ذات لحظة مفجعة:

da i una caramella

هذه العبارة تعني بالإيطالية: «امنحه حبة سكر»، وسنرى في سياق مواصلة الحديث عن سيرة الحمودي، متى وردت تلك العبارة ومغزاها.

كان بوسع الحمودي سرد قصة بكاملها أمام كل علامة رافقته منذ الإصابات الأولى فالثانية والثالثة، وكان يروي

لنـــا تلك القصـــص الواقعية حــدَّ الخرافة.. المقرونـــة بالحروب والمتاهات.

مرةً وقع أسير أثيوبي بيد العسكرية الإيطالية، وكانت عادة العسكرية الموسولينية أن يتمَّ التخلُّص من الأسرى، ولكن بعيداً عن أعين الجُند، وشـــاء سوء الحظ أن يطلب القائد الإيطالي من الحمودي اصطحاب الأســير لتصفيته جسدياً.. قال له بعنجهية العســكري المحمــوم بالظفــر: «امنحــه حبة ســكر! Dai una caramella»، والمعنــى: أطلق عليــه رصاصة الرحمة. خرج الحمودي مع أســيره صوب البر المفتوح.. ذهب به بعيداً بعيداً، والأســير مقيــد بحبل في يديــه، فيما كان الحمــودي على ظهر حصانه.. أطلق الأسيرَ وأشار إليه بالهرب بعيداً.. كان المسكين يعتقد بأنه ميت لا محالة، وأن الرصاصة ســتخترقه من الخلف كما جرت العادة.. سار في طريقه رويداً رويداً وهو ينظر بعين الاسترحام لجلاده المُفترض.

لكنه تيقَّن بعد لحظات أن حياةً جديدةً كُتبت له، عندما أطلق الحمــودي عيار بندقيته فــي الهواء، ليُوهم قائد المعســكر بأنه باشــر المهمة العسكرية الثقيلة بالتخلص من الأسير. بعدها ظل

الأسـير يجري بعيداً ثم يلتفت رافعاً يديه إلى السماء، في إشارة شكر وامتنان، وهكذا ظل يفعل حتى اختفى عن ناظريْ جلاده، الذي لم يعدمه بحسب مُقتضى الأمر العسكري.

بـاح الحمـودي بهـذه القصة بعد سـنين طويلة مـن انتهاء الاسـتعمار الإيطالي لجنوب الصومال، ونهاية الحرب العالمية الثانية، وفي أضيق دائرة من معارفه وأهله.

واقعـةٌ أُخرى تعـرض لها الحمودي فـي غابات الصومال الكثيفـة، مع ناقته التي زاملته في حله وترحاله، وكان يعشـقها ويدعوها باسـمه الأول «عبدالعزيـز»!.. يومها نال منه التعب فذهـب في غفوة نوم قاهرة، وفجأة سـمع صـوت الناقة.. حال قيامه مـن غفوته لاحظ أن ثعباناً كبيـراً يلتف حول عنق الناقة ليخنقها.. أخذ بندقيته ورمى الثعبان برصاصة راكزة في رأسه، فتهاوى بجسـده الثقيل الطويل، لكن الناقة كانت قد فقدت القدرة على الاستنشاق فسقطت من طولها بجوار قاتلها الكاسر، وعاد الحمودي إلى معسـكره مترجـلاً، ليروي حكايات لا تنتهي عن ناقته المفقودة.

الواقعة الثالثة حدثت أيضاً في الغابة.. حين وجد نفسه وجهاً

لوجه أمام أســد تلمع عيناه كما لو أنهما جمرتان من نار، ولأنه عرف بعض وسائل حماية الذات أمام الضواري، تحرك بهدوء بالغ، راجعاً إلى الوراء، حادســاً بأن شجرةً ما ستمنحه الأمان، وبالفعل، وبعد بضع خطوات لامس الشــجرة، فصعدها مُجفلاً، من دون أن يدرك كيف فعل ذلك. من حسن حظه أن الأسد ليس من متسلقات الأشجار كالنمر. دار الأسد دورتين تحت الشجرة، وأطلــق الحمــودي النار عليــه من دون أن يصبه.. لكن الأســد سرعان ما غادر المكان بعيداً.

***

حكايات الحمودي توازت مع عوالم الطفولة الشقيَّة لمجاميع الأطفــال المتدافعين من قمة التلال الرمليــة الفاصلة بين البحر والحــارة. كانت تلك التلال الملعــبَ والخيارَ والابتكارَ والخيالَ معاً، وكانت الطبيعة البِكر المحيطة بهم، مصدراً آخر لحكايات صادحــة.. كان الأطفــال يتناوبون ســرد حكاياتهــم، فهذا الذي صنع طائرة ورقية سيتمكن من السفر بها بعيداً نحو البَرّ التالي للبحر، وذاك ســيحول ســجادة جدته إلى بســاط للريح.. يتجول بــه في أرجاء البحار والبراري، والثالث ســيتمكن من الطيران

بنفسه بعد أن يصنع من أجنحة الفراشات ريشاً له، والرابع سيتمكن من صناعة قارب رملي يبحر فيه في شاطئ الليدو.

ذلك الرابع هو الذي سيكون بعد حين أحدب الحارة المشهور، وهو الذي سيظل مؤرقاً بذكريات يوم بعيد تداعت فيه أحوال الطبيعة، وكان بحر المدى المفتوح أمامه، مشهداً فريداً في قلب معادلة التحول، فقد ارتفعت مياهه لتتناسب مع أمواج رغوة ناصعة البياض، فيما تكسَّرت تباعاً لتداعب جوانب قارب خشبي موروث من الأسلاف.

القارب الخشبي كان شاهداً مثالياً على تناغم الطبيعة، حيث ألوان البحر بتدرجاتها، والرمال بنصوعها الناعم، والسماء الزرقاء الصافية بوعودها الشفقية القادمة من السماوات العالية.

ذلك القارب كان ركناً ركيناً في حياة الساحل، وكان بمثابة الحامل الأول لبطولة الانتقال في معارج البحر، الذي كالزمان في تقلباته وعجائبه، والمكان في تضاريس أحواله المُترجرجة؛ فالصياد الباحث عن أسماك حياته هو ذاته الذي سيغادر بعد حين ليركب البحر، مسافراً مع القارب الخشبي، بحثاً عن نوادر الجواهر الثمينة في الأعماق حيناً، أو في مجاهيل آسيا الكبرى أحايين أخرى.

هكـذا كانت أحلام الأحدب كما وطئت قدماه سـاحل الليدو، رائيـاً إلــى انتقاله الموعود بقـارب أحلامه، ظافراً بالأسـماك التـي اكتنزت بطونها بالتمور المجففة، ثم يعود بالقارب محملاً بالأقمشة والطنافس وعطور «هِر الزباد» السقطري المُتعطش لدماء الطيور وأكل التمور.

هكذا شكّل البحر في ذاكرته قيمةً مركزيةً تنتظم حولها حياة الساحل.. فالنساء سيذهبن إلى الشاطئ مع أطفالهن توقعاً لسفينة قادمـة مـن أعالي البحار، فيمـا تعتمر الوجـوه والعيون بلمعة الانتظـار الصبور المتفائل، تَحفُّزاً للبشـارة القادمة مع وصول الأحدب من درب مغامراته المائية.

وحالمـا تتحـول لحظة الانتظـار إلى مزاج غامـر، تختلط البهجـة بدموع الفرح، لتبدأ دورة حيـاة جديدة، مزاجُها البحر، وأداتهـا القـارب، فتظهـر مجـدداً معادلة الرحـلات الثلاث.. الاصطياد عن قرب بالسـفن الخشـبية الصغيـرة، والبحث عن الغرائب في الأعماق، والتجارة فيما وراء البحار.. ليؤكد البحر الزاخر معنى كروية الأرض المقرون بدائرية الوجود.

تلك المشـاهد والشـواهد التي ارتسـمت في ذاكرة الأحدب

المثقلة باستعجال المستقبل، حَدَتْ به إلى عشق البحر المرسوم في عوالم خياله المتوهج، حتى إن قانون المغالبة بدا له واضحاً ذات عصر بعيد، وكان استرجاع وهج الحنين الطافي، يوماً غائماً من ميتافيزيقا الزمان الذي حدد مصائر أحلامه.

في ذات المربع السحري لساحل الليدو بمقديشيو، انبرت تلك المُغالبة، فقد جال ذات يوم من أيام الأحلام الوردية في افتراضات ذهنية لقوارب خشبية، مدفوعاً بقوة الخيال، فارتسم في جوانيات عوالمه كلُّ ذلك الدفق الطافي على سطح المعاني، فتاةَ في حلم مستحيل، وكأنه أدرك بنعمة الخيال، أن بوسعه مُناجزة ذلك المستحيل اعتماداً على المحرك الداخلي الكائن في أعماق وجدانه، وذاكرته الممزوجة بملوحة الهواء.

عاد إلى مرابع افتراضاته التي كالزيارة العابرة وكالسحب المسافرة.. ثم بدأت متواليةٌ من نوع خاص، فطار في هواء الكيفية والسببية وما بينهما، فخيِّل إليه أنه يتجوَّل في العالم من نقطة انطلاقة قاربه الغائب. تالياً واستتباعاً.. انتابه عصفٌ داخليٌّ يتصاعد ليفيض بانزياحات ومحاورات هادئة مع الأقربين والأصدقاء.

كان السـؤال المركـزي الذي انبثق من أحشـاء ذلك الحلم، يتلخَّص في ذاته المحتارة: هل يمكنني صناعة قارب خشبي؟

ومع توالي المشاهدات البحرية، وتصاعد الحقائق الخارجة مـن تضاعيف العُسـر، بدأت المغامرة. قال لأصحابه: سـنقوم الآن بصناعة قارب يركب الموج، ويتعاطى في دلال مع المياه، ويكون رشيقاً جميلاً، وصادحاً بغنائية بصرية ناصعة الضياء.

وبـدأت فرقة العمل فـي دورانها اليومي حول الأخشـاب، والمسـامير، والصمغ البلدي، والمناشـير، والأوتاد، والحبال، لصناعة قارب الأحلام. حدث ذلك في يوم بعيد من خمسـينيات القرن العشـرين المنصـرم، عندما كانت «بلاجـة» حارة من ثلاثيـن بيتـاً خشـبياً، تعتليها أسـطحٌ معدنية، تصـدر فرقعات عاليـة أثناء هطـول الأمطار، وتعيـش في جنباتهـا أنواعٌ من الصراصيـر، والزواحـف، والحشـرات الطائـرة، والفئران؛ وكثيراً مـا كانت الصراصير كبيرة الحجـم تنتفض مع هطول الأمطار، لتباشـر عرضاً هوائياً للطيران، وتُخرج الناسـوتيين المجفوليـن من غرفهم إلى سـاحات المنـازل، لينالوا نصيبهم المقسوم من البرد والمياه الزاحفة.

اندفع صُنَّاع القارب الحُلم كما لو أنهم يرسمون لوحة أيقونية عامرة بألوان يمتزج فيها الممكن بالمستحيل، والحقيقة بالخيال، لتنبري بعد حين في مشــهد فريد المِثــال.. فدارت عجلة اللُّهاث الأول فــي تشــييد القارب، فيمــا تكاثرت المتاعــب والنتوءات لتتحول إلى مُنغصة، مثل ذُبابة تحوم حول مائدة الطعام.

قــوة الخيــال والحلم بدت أقوى من المتاعب، وســار العمل قُدماً باتجاه إنجاز قارب الأحلام الأول، الموعود قريباً بامتشاق البحــر، ليُحلق في مياهه الصافية كنورس بحري ناصع الجمال والدلال.

مع انبثاقة الشــعاع الأول للشــمس، كان هــو وزملاء دربه يتحفَّزون لتلك اللحظة التي سيكتشفون فيها مجازية الخيال وقوة المعانــي.. تبــارى فريق العمل المنتظر لمفاجأة اكتشــاف الماء والهــواء.. وبكل تؤدةٍ وحرصٍ بالغيْن باشــروا تحريك القارب نحــو البحر، وكأنهم يُعلِّمون طفلاً كيف يســبح.. كانوا فرحين، مُعتدِّين بطول انتظارهم القادم لوعد كان مفعولاً.

ساح القارب مُحلقاً كالنورس، وبدأ يشق طريقه.. من ظلال اليابســة، متجهــاً صوب حياته المائية المديــدة.. وتهادى مرات

ومرات.. وجاوز انكسارات الموج ورفارف الأنسام الفجرية العليلة.. ثم سار بعيداً بعيداً، ليختفي عن الأنظار في مدى البُعد الثالث المُوشَّى بزخارف الفجر الخارجة من مرايا الماء اللامع، وليأخذ مكانه كأول قارب أحلام، يطلقه الأحدب في مياه الليدو.

بدا القارب في زهو فِتنته، مُناجزاً مشقة الإبحار الأول على درب المتاهة، وكان كما لو أنه آخر جواد أصيل يركض في حلبة سباق قديمة.. وفجأةً، وكثيراً ما تكون المفاجآت سارة، أو حزينة ونحن نروي القصص، لكن هذه المفاجأة كانت بقياس التراجيديا المرافقة لقارب ينكسر في لُجة البحر، ليتحول إلى هشيم تتقاذفه الرياح البحرية كأن لم يكن.

نعم.. انكسر القارب، وفشلت التجربة الأولى، لكن تلك الواقعة المشهودة كانت الرافعة الكُبرى لتحدٍّ جديد سيوصِّل المغامر إلى محطته التالية التي سنأتي عليها.

قال حامل الأحلام بجزم: للقارب أن يُبحر ثانيةً حتى وإن كان موعوداً بخيبة جديدة. وهذا ما حدث، فقد انكسر القارب في التجربة التالية، لكنه بعد ذلك عاد إلى البحر ليتألَّق في تجربة ثالثة، واستمر نجاحه الصاعد إلى يوم الوعد التالي.

***

كانت وسيلة النقل البري في تلك الأيام، عبارةً عن حناطير تجرّها الخيول، وكان الحالم ينظر للبرّ نظرته للبحر، وكانت خيول الحارة المُرهقة تستجِمُّ في البحر صباح كل جمعة، حيث يعمل مالكوها على غسلها، وإطلاق سراحها لتمرح ركضاً واستعراضاً في الساحل المفتوح، وكان الأحدب يومها غلاماً فتياً مشبعاً بذات الروح المغامرة.

الغلام المغامر دوماً يربط فتوة الخيل بمنظر البحر.. كان دائم المشاهدة للخيول المنتشرة على مدى الساحل وكأنها ومضات لونية مُشعة، وقد كان انخطف بصره بحصان أبيض يجمع بين الجموح والرشاقة والقوة.. اقترب من الحصان بتؤدة، وحاول مداعبته من دون جدوى، وفجأةً قرر امتطاء الحصان العاري من كل سرج، فاندفع الحصان يجري بسرعة متسارعة، فيما تطاير الغلام في الهواء، ليتلقّى ركلة صاعقة برجل الحصان المندفع، وكان من سوء حظه أن تأتي الضربة في عموده الفقري، لينقل مشلولاً إلى المنزل، وليصبح بعد ذلك أشهر أحدب في الحارة.. معقوف الظهر.. متيبِّس الجسد، لا يستطيع إدارة عنقه والالتفات يميناً وشمالاً.. مُقيَّد القدمين. ولكن بقي له من جهاز المغامرة المستقبلية قدرته على النطق بصوت

روبوتـــي حـــاد، يبدو كما لو أنـــه صادر عن آلـــة وترية.. أيضاً يداه المُتحررتان تطاولتا وتمددتا كذراعيْ ضفدع، فتحولتا تباعاً إلى بديل شـــامل عن بقية أعضاء جسده المشلول، حتى إنه كان يستطيع تسلُّق الجدران كالزواحف.

حالمـــا انتقل الأحدب من حالته السـويَّة السـابقة إلى منطقة الأحـدب المعقـوف المُعطَّل، بفضـل ركلة الحصـــان الجامح، أدرك أن مـــا بقي له من أعضاء يمكنها أن تكون سـفينة إبحاره الجديدة، صوب مغامراته التي لا تتوقف. وهكذا شهدت الحارة خلال سنوات قليلة منزل الأحدب العامر بالبشر، فقد كان يؤجر الدراجـــات الهوائية للأطفال، ويقـوم بإصلاح الآلات المُعطلة، كما أصبـح المُعلِّم الشـعبي الأشـهر لتدريس الموسـيقى على آلتـيْ العود والكمـان، وكان في لحظات صفائـه يغنى بصوته الروبوتـي، كما كان منزله المتواضع ملجأً للتائهات من نسـاء الشرود والهوامش.

لم يعد بوسـع الأحـدب مزاولة هوايته خـارج البيت، وهو المقيد بهذا الخلل الجسـدي المسـتديم، لكنه نقـل ذاكرة القارب والحصان وما بينها، إلى مسـتودع مربعه السحري الذي اتسع

لعشرات المغامرات، والكثير من الاجتراحات.

***

دارت الأيام، وقرر الإيطاليون مغادرة المكان، وكان عليهم أن يبلغوا اليمنيين الجنود بالسفر معهم إلى روما، أو البقاء في الصومال بإقامات دائمة، أو العودة بهم إلى اليمن.. كان الخيار الجبري للحمودي، البقاء في مقديشيو مع زوجته وأبنائه وأبناء صديقه المفقود فاضل الحكيمي.

شهدت الصومال تجربة برلمانية فريدة بعيد مغادرة الإيطاليين، وكان مبنى البرلمان الأحمر الفريد بالياجور الأحمر معْلماً شاهداً على المنصَّة السياسية والإدارية التي تركها الإيطاليون للصوماليين، وبهذه اللعبة الرشيقة السويَّة سارت الأمور على عهد الرئيس الأول المنتخب آدم عبدالله عثمان (aadam cabdulle cusmaan) وعهد الرئيس المغدور اغتيالاً عبدالرشيد علي، المُلقَّب «شر ماركي»، وتعني بالصومالية، «المصون من الشر».. لكن الشر كان له بالمرصاد، فبعد اغتياله الغامض، قرر كوكبة الجنرالات القائمين على أمر الجيش الشروع في انقلاب عسكري، سرعان ما أسموه «الثورة»،

واستتبعه تشكيل المجلس الأعلى لقيادة الثورة برئاسة كبير الجنرالات محمد سياد بري، ولم تنقض أيام قليلة حتى أطل الخلاف القبلي الأوليغاركي برأسه، لتبدأ متوالية الإعدامات والاعتقالات، وصولاً إلى حروب الشمال والأوجادين.

جاءت ذروة المتاهة في الاندفاعة الشبابية العفوية التي حاصرت القصر الجمهوري (villa Somalia)، ووضعت الرئيس سياد بري أمام خيارين لا ثالث لهما، فإما الصمود ضد الزحف الشعبي العاتي، وإما المغادرة التكتيكية بحسب نصيحة مستشاريه الأقربين، فكان خياره المغادرة إلى قريته في منطقة «بلدوغلي»، لكنه كان شديد الحرص على ثلاثة إجراءات: أولها فتح مخازن السلاح للمتحاربين في مُقبل الأيام، قائلاً لأصحابه: افتحوا كل مخازن السلاح لأنهم سيتقاتلون عشرين عاماً!!. وقد صدقت نبوءته القادمة من احتساب دقيق للحال والمآل، وكانت الثانية أن يأخذ معه الختم الرئاسي والكرسي الرئاسي والطائرة الرئاسية! وهذا ما تم، فقد كانت الرئاسةُ الرمزية قدسَ أقداسه. وحين وصوله إلى قريته قرر إقامة فيلا على النمط الإيطالي، وتربَّع جالساً على البلكون، وعلى الكرسي الرئاسي بالذات، ووضع أمامه الطاولة الموروثة من المندوب السامي الإيطالي،

وكذا الختم الرئاسي، فيما كانت طائرة البوينغ (505) الوحيدة المملوكة للدولة، تقف شامخة أمام ناظريه.

من تلك الجلسة الرومانسية حدَّ الوهم، كان الجنرال يراقب مصائر بلاده، ويتتبع أخبار قتلاه، ودمار عاصمته، كيما يتحول في مدونة التاريخ إلى نموذج فولكلوري للدكتاتور الذي قرر أن يغرق في أناه، ومن بعده الطوفان.

قال عارفوه إنه كان عاشقاً لكتاب «تفسير الأحلام» لابن سيرين، وكان يهتم بمصائر أحلام منامه، بل إنه كان يتخذ القرارات الحازمة بحق من يراه أثناء نومه، وقالوا إنه كان يسهر الليل، وينام في رابعة من نهار، فالليل هاجس طمأنينة دائمة لديه، لأنه كان ينعم بالأخبار المتوالية من المُخبرين الذين يضعونه في صورة الوضع المستقر جداً كل مساء.

ذهب الجنرال سياد، ومعه تاهت الصومال في مجاهيل الحرب الأهلية المستديمة، وكان الحمودي شاهداً على تلك الحرب الجهنمية.

الحمودي الذي جاء مع العسكرية الإيطالية من عدن،

سيعود إلى عدن، وسيعيد تكرار تجربة الإبحار بعد ستين عاماً من الحنين والأنين، وفي طريقه البحري عبر خليج عدن ستعود ذاكرته إلى ذات المشاهد الأولى التي تعلم منها معنى دوران الأرض. وحينها سيعرف ما لا يُعوَّل عليه في هذا الوجود، ذلك أن كل قول ينطوي على مخاتلة لا يُعوَّل عليه، وكل قول لا يصدر عن معنى لا يُعوَّل عليه، وكل قول يزيد عن حدّ المعنى لا يُعوَّل عليه، وكل كلام لا يُعتد بمفرداته لا يُعوَّل عليه، وما يُقال توصيفاً للشواهد الماثلة لا يُعوَّل عليه، وما تراه من مظاهر عابرة كالسحب المسافرة في الأجواء المترعة بالضباب لا يُعوَّل عليه، واللاعبون في متاهات أوهامهم الذاتية، لا يختلفون عن الذاهبين في أوهام افتراضاتهم، وكلاهما لا يُعوَّل عليه، والسامع المُنكِر كالمتحدث المَنْكُور لا يعول عليهما، ومن جاهر ناطقاً ليس كمن جاهر صادقاً.. الأول لا يعوَّل عليه. ومن فاض بالمعاني أدرك المغاني حتى مادت به الأرض فنمت له أجنحة من رفارف الغيوب، فتاه في معارج الضياء، وارتمى في أحضان الفناء، فكان التعويل عليه قيمةً مجردةً حدَّ الاحتياط الذي لا ينفد. ومن لا يعرف الصمت لا يُعوَّل عليه، ومن عرف

الصمت من دون بوحٍ صاعقٍ لا يُعول عليه، ومن أدرك الظلمة في ذاته، واقعاً فيها ومُمازجاً إياها، عرف ذاته وأشـرقت أنوار سرائره، وهذا خير من يُعوَّل عليه.

تلـك كانت التميمة السـحرية التي ورثها الحمودي عن جده الطيَّار، وانتقلت بقوة العادة إلى أسلافه المتابعين لمسيرة الحنين والأنين.

